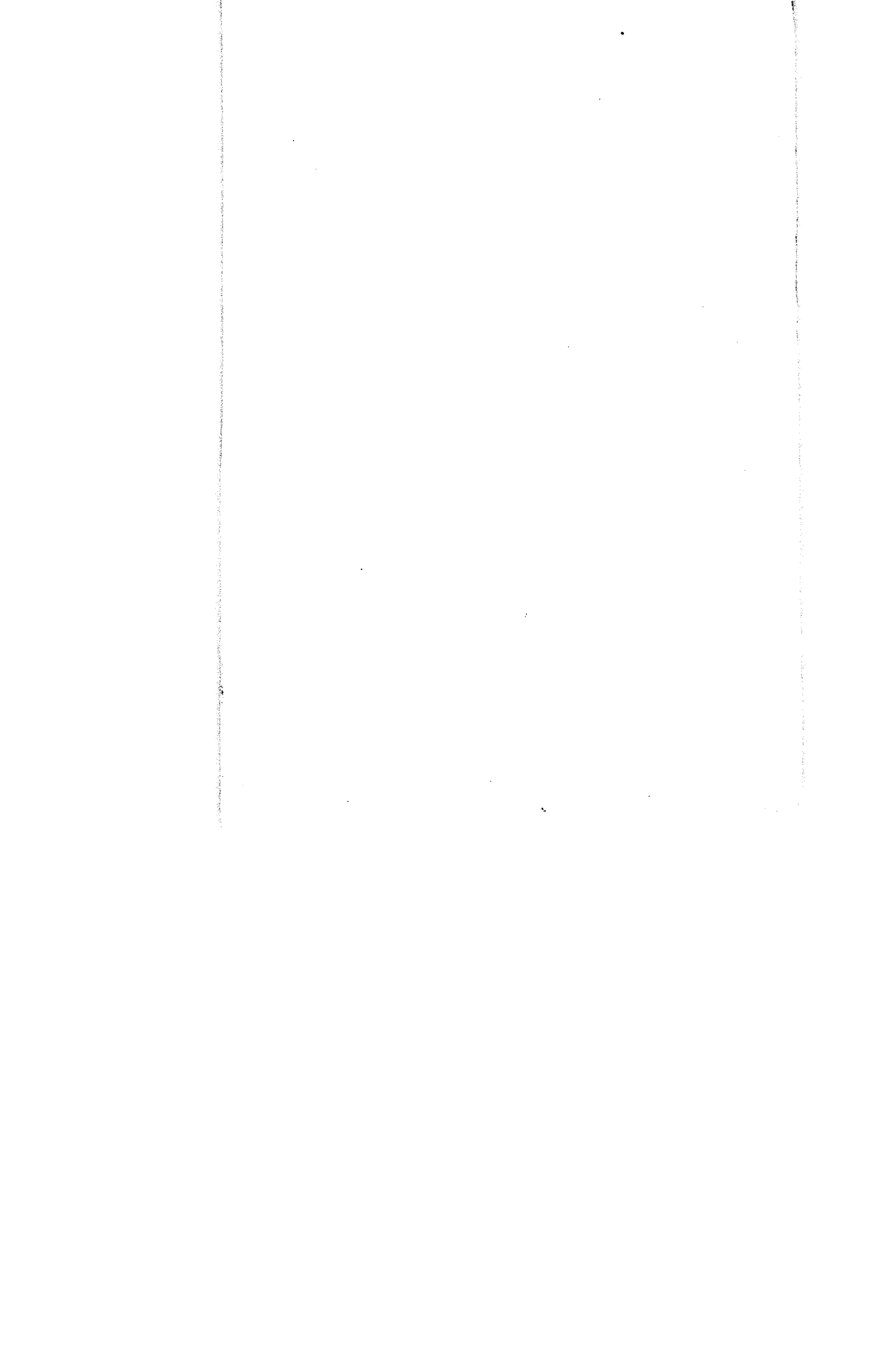
١٨/١١/١٩٩١

ثقافتنا والفوضى

بقلم

بشير العيسوي



إهـــداء

إلي كل من يكلف نفسه عناء قراءة ما كُتب هنا .. إلي كل من يقدم لى نقدا مخالفا لما كتبت .. الى كل من يتلمس خطأ أو عيباً في هذا العمل .. اليهم جميعا ..

أهدي هذا العمل .

* * *

مقـــدمة

هل تعود الامبراطورية الإسلامية ؟

سؤال كثيرا ما ألح على وشغلنى ولابد أنه شغل الكثير من المهتمين بقضايا الإسلام والمسلمين : هل يستطيع المسلمون استعادة امبراطوريتهم السابقة : هل يستطيع مسلمو أواخر القرن العشرين أن يوحدوا جهودهم لانشاء دولة إسلامية قوية كتلك التي عاشت حتي عهد الامبراطورية العثمانية ؟ وكانت الاجابة متفائلة مستبشرة خيرا لتقول : نعم يستطيع المسلمون ذلك اليوم ، ويستطيعونه في أي وقت كان عند توافر عدد من الشروط بموجبها يتم صياغة شكل الدولة الإسلامية الكبرى التي يجتمع تحت لوائها كافة المسلمين لا فرق بين عربيهم وأعجمهم .

من تلك الشروط أن نسقط من حساباتنا تلك التفرقة البغيضة بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب . فالمسلمون كل لايتجزأ ولا ينقسم ، والمسلمون كل يعمل لصالح الدولة ولصالح الأمة وأن الدق علي تلك الوتيرة اساءة إلي جهود العلماء المسلمين الأوائل الذين كانت غالبيتهم من أصول غير عربية ، إنما كانوا مسلمين موالين للدولة الإسلامية قلبا وقالبا ، واصلوا الليل بالنهار حتي آخر العمر في سبيل إعلاء راية لا إله الا الله محمد رسول الله . والإسلام يجب ما قبله ، فلا داعي أن ننكأ جراحا اندملت في صدور المسلمين من غير العرب الذين سعدوا أيما سعادة بأن أصبحوا مسلمين ، أن انضمام هؤلاء الناس إلي صفوف المسلمين نعمة أنعمها الله عليهم فلا يجب أن نفسدها ولايجب أن نعكر صفو المتعه بتلك النعمة حينما نقول إن حضارتنا عربية وليست اسلامية ، أو أن يقول متقول إن حضارتنا مزيج من الحضارتين ، وهو ينزع من حين إلي آخر إلي الوصول إلي قومية فكرية تحصر الإسلام في المنطقة العربية فقط متناسيا

أن الاسلام نزل للعالم كافة : العالم قديما منذ خمسة عشر قرنا ، والعالم حديثا في نهاية القرن الخامس عشر الهجري . لذا كانت دراستنا «حضارتنا : عربية أم إسلامية ؟ » واحدة من المقالات التي نعتز بتقديمها بين يدي القارىء في هذا الكتاب المتواضع . لقد نجح المستعمر قديما وحديثا أن يضع حواجز نفسية بين شعوب المسلمين فدس في أذهاننا وقلوبنا قومية الفكر ، فأصبح المصري يباهي بمصريته علي حساب السمت الأصلى لوجوده وهو الإسلام ، فأصبحت النزعة إلى المصرية فى الأناشيد والأمانى الوطنية أشد من النزعة إلي الإسلامية في تلك الأناشيد والأماني إن لم تكن منعدمة أصلاً .وكذلك نهجت بقية الأمم الإسلامية فعززت الروح القومية وألصقت بها جنسية البلد الذي يتبنى تلك القومية . ونحن لانستطيع ببحث أخلاقى صغير كهذا كما لانستطيع بموسوعات ، من المواعظ ومكارم الأخلاق أن نلغى الفوارق التي توجد بين الشعوب الإسلامية في يوم وليلة ولا في دهر . أننا نعترف بتلك الفوارق ونعترف بتلك الأختلافات بل ونحرص علي وجودها لأنها تخلق التميز والابتكار الذي ننشده دوما . ولكن أن تزداد موجة تلك الأختلافات والفوارق حتي تصبح قومية قائمة بذاتها تؤدى إلي انسلاخ تلك الأرض والدولة بما حوت ومن حوت عن الجسم الإسلامي ككل ، كأن ترتفع دعوة ممقوته إلى القول بأن مصر فرعونية وليست إسلامية ، وسبقتها دعوة مغرضة أن مصر ليست عربية ، أن لنا كمصريين أن نعتز بوجود مآثر الفراعنة وآثارهم ، ولكن ينبغى التوقف عندهماوعند تسميتهما الحقيقية علي أنهما ماض فقط انقطع عن الحاضر ، فان الأهرامات كانت رمزا لسخرة العامل المصري وكانت رمزا لذل العامل المصري وإلا فما معني أن يجند خوفو عشرين

الف عامل مصري لبناء مقبرة ، أي سخف وأي استغلال ذلك !! وقد جند عدد مماثل لبناء الهرمين الآخرين ليكونا قبرين آمنين لخفرع ومنقرع . ومع ذلك نجد من يتناول الأهرامات المصرية وكأنها رمز وعز وفخار ، ونسى ، أو أنه لايعلم ، أن غذاء العامل المصري الذي بنى الاهرامات كان الخبز الجاف والبصل فقط ، وبالطبع كان الخبز جافا لطول تعرضه لشمس الصيف ولم يتم تجفيفه في أحد أفران الميكروويف أو المخابز الفرنسية الشهيرة . كذلك ان البصل هو الغذاء لأن لاسعر له ويستطيع العامل أن يحصل عليه كما تحصل الدابة علي عشب الأرض . لذا فنحن نكون محقين اذا نظرنا إلي تلك الأهرامات من منظور اسلامي ونقول أنها فترة سبقت الإسلام وكذلك فانها سبقت الديانة القبطية في مصر . وإذا كانت الحضارة الفرعونية في مصر قد زاد عمرها علي سبعة آلاف سنة فان الحضارة القبطية لم يتعد عمرها الف سنة أعقبتها أربعة قرون من الحكم الإسلامي كانت كفيلة بصبغ مصر بالاسلام والسمت الإسلامي . ومن غريب حقا أن الإسلام قد أدخل في مكنون المصري القبطى خلال أربعمائة عام فقط اللغة العربية فأصبحت - وهذا من أعجب المعجزات - لغة الأديرة والكنائس والمواعظ وتنحت اللغة القبطية في زاوية ضيقة من تلك الزوايا في الأديرة البعيدة في صعيد مصر .

ولذا فان مصر دولة مسلمة صرفة . ولانستطيع أن نقول أن مصر دولة عربية إذ أن جذور أهلها الأصليين ليست عربية ، إنما اختلط بها الدم العربي فيما بعد . وذلك شرف كبير لمصر أن تكون إسلامية قبل أن تكون عربية . ولقد أدخل دعاة القومية في فؤادنا أن اللغة العربية من أهم مقومات عروبة مصر ، وأن اللغة العربية والإسلام من أهم عوامل كون

مصر عربية ، وذلك خداع وكذب وتلفيق أكاذيب علي التاريخ ليساغ من خلالها نمط من التابعين أو قل عبدة طواغيت القوميات العربية في مصر وفي غيرها .

وثانى الشروط التي نتصور توفرها لقيام دولة إسلامية قوية تعيد أمجاد الدولة الإسلامية الأولي ، أن ننقى مصادر ثقافتنا من كل دنس أصابها ، فقد نجح الغرب في اقناع المسلمين المعاصرين والمحدثين بأن معين الثقافة الإسلامية قد نضب وعليهم أن ينهلوا من ثقافة الغرب المتمدن المتنور المتحضر أزرق العينين أحمر الخدين أشقر الشعر والحاجبين ، وكانت الإجابة والاستجابة فنهل مبعوثونا العرب من مصادر أمريكا وكندا وبريطانيا وفرنسا غربا ، ومن روسيا وبلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا شرقا وعادوا جميعا بما لديهم من علوم تصوروا خطئا أنها تفيد في تطوير العقل العربي - بالطبع تلاشت أمامهم صورة المسلم والعقل المسلم فأصبحوا يتعاملون مع شعوبهم حسب هويتهم الجديدة ، وهي الهوية الغربية أو الشرقية التي تأقلموا معها .

ولاتعليق لنا علي حملة الشهادات الغربية أو الشرقية في الطب أو الصيدلة أو الزراعة أو الهندسة أو الفيزياء أو الكيمياء وعلوم الحياة وما شابهها من علوم تقنية وتطبيقية ، لأننا نعترف متواضعين أننا تخلفنا عن الغرب والشرق كثيرا في تلك المجالات وعلينا أن نجلس إلي موائدهم حتي نتعلم منهم رغم أن الثمن كان باهظا مكلفا ، وكانت الخسارة عظيمة ، فقد أصبحت بوصلة قلب وعقل معظم علمائنا العرب تميل إلي الغرب دائما ، وتهوي أفئدتهم اليه عند طلوع كل نهار ، أذن مايهمنا هنا هو حملة الشهادات العلمية الغربية والشرقية في العلوم الانسانية والآداب

والفلسفة وعلوم الدين . لقد كانوا بمثابة المكملين لما بدأ الاستعمار من تغريب وتفتيت لعالمنا الإسلامي . عادوا بأفكار الغرب كما هي ، عادوا بمقاييس الغرب كما هي ، عادوا بما لدي الغرب كما هو ، عادوا حتي بغليون الغرب وسيجاره وقبعاته وملابسه وعاداته ، ومنهم من عاد بزيجات غربية فأصبح قلبهم وعقلهم مليئا بمأثر ومحاسن الغرب التي تمتعوا بها . وبعد هذا فهل نتوقع من أي من هؤلاء أن يحدثنا الا عن كانط وهيجيل وروسو وماركس وإنجلز ولينين وتروتسكي في الفلسفة ؟ وهل نتوقع من أي من هؤلاء إلا أن يحدثنا عن شكسبير وبن جونسون ومارلو وميلتون ودرايدن وضن وشيلي وكيتس و ووردذوورث وكوليروج (الحشاش) وبايرون (متزوج أخته) وإلي آخر تلك القائمة من شعراء الغرب ؟ هل نتوقع من أي من هؤلاء العائدين الا أن يتحدث عن الأقتصاد الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي / الشيوعي في الاقتصاد ؟ هل نتوقع من أي من هؤلاء إلا أن يتحدث عن حرية المرأة ومساواتها بالرجل واعطائها حريتها كاملة غير منقوصة ابتداء من الخروج بمفردها مرورا بقيادة السيارة وانتهاءاً باختيار اصدقائها واستضافتهم في بيت الزوجية ؟ هل نتوقع من هؤلاء العائدين من الغرب أو الشرق الا أن يضيفوا إلي الركام العربي ركاما غربيا حينما يقدمون لنا موسيقات وأوركسترا وسيمفونيات ومعزوفات أهل الموسيقى الغربيين والشرقيين ، لذا كان البرنامج الموسيقى من إذاعة القاهرة يخصص وقته كاملا لاذاعة تلك الموسيقات دون توقف يذكر الا ليواصل البث مرة أخري . ما لنا نحن وتلك الأوبرات والرقصات التي لانفهم منها شيئا ؟ وقد أفهموا الناس أن الموسيقى لغة عالمية لاتحتاج إلي قواميس أو معاجم لفهم معانيها ، وكانت تلك توطئه لأن يقوم بتدريس تلك اللغة ألاف

الموسيقين العرب الذين نجحوا بنفس القدر من البراعة في تعلمهم لتلك اللغة أن يعلموها لملايين العرب المسلمين ، فكانت الطبلخانات في بلادنا الواسعة تزيد في عددها عن المكتبات العامة وتزيد في أحيان عن المستشفيات فان الموسيقى - حسب نظرياتهم - علاج الروح وغذاؤها ،ومستقبلا ستكون كساؤها . لانعلق الا أن هذا سخف وهراء ومساخر ترتكب باسم العلم ، فقد أدخلوا الموسيقى تحت تصنيف العلوم .

وتستمر تلك المأساة في الظهور علي الساحة العربية بافتتاح دار الأوبرا المصرية التي أرهقت ميزانية الدولة بملايين الدولارات كان ينبغي أن توجه إلي قوت الشعب وإلي مساكن الشعب وإلي علاج الشعب . لكن ما فائدة هذه الكلمات والقائمون علي أمر دار الأوبرا من خبرائنا الدارسين في الغرب قد أقروا وأقتنعوا أن الموسيقى مظهر حضاري علينا أن نقتفى فيه أثر الغرب طبلا وزمرا ورقصا وغناء وقفزا في الهواء وارتماء في الأحضان وما الحيلة ووزارة الثقافة تزخر بمجهودات ومساهمات العائدين من الغرب والشرق ومعهم ذخائر علوم الشرق والغرب وبعضها لم يستخدم حتي الآن . وفي حين يعلن وزير الثقافة إفتتاح أكبر معمل سينمائى في الشرق الأوسط ينتج فيلما سينمائيا في اليوم تقريبا علي مدار السنة بانتاج إجمالي ثلاثمائة فيلم سنويا ، فإنه تحت نفس الخبر بجريدة الأهرام في ١٥/٢/١٩٨٩ م خبر حزين مؤلم يطالب فيه رئيس اللجنة الوزارية للإنتاج بتوفير الصلصة للشعب . بالطبع إن علبة الصلصة أهم بعشرات من دور الأوبرا التي يمكن أن يصر علي افتتاحها هؤلاء المثقفون . إن علبة الصلصة تفيد في نمو جسم طفل أو شاب ، لكن دار الأوبرا أو ذلك المعمل السينمائى التعيس لن يفيدا في تجنب أمراض سوء التغذية أو نقص

المناعة لدي الأطفال ، كما أنهما لن يفيدا في توفير الحليب في صدر المرضعات ، ولن يفيدا في تغذية حامل ، كما أنهما لن يجديا في إصلاح التعليم ، كما أنهما لن يسهما في انشاء مدرسة ، ولن يسهما في إنارة أو رصف شارع ، لكنه استسلام كامل لما طلب الغرب ، فليسعد المستعمر الغربي أن وجد منا عربا ومسلمين يقومون بدوره علي أكمل وجه . ومن هنا جاءت مقالتنا « حضارتنا والفوضى » والأذاعات العربية السعيدة لتلخصا وجهة نظرنا في هذا الخصوص .

وثالث الشروط التي نتصور توفرها لقيام دولة اسلامية قوية أن نهتم بتربية أطفالنا وتنشئتهم تنشئة إسلامية صحيحة . نريد مدارس نظيفة في مناهجها وطرق تدريسها . نريد أن يقوم علي مناهج التاريخ نخبة من علماء الاسلام وأن يقوم بتدريس التاريخ العربي والإسلامي المسلمون فقط وألا يشترك في وضع تلك المناهج أو تدريسها أي من المسيحيين لأن تجارب الماضي ما تزال ناطقة بمحاولاتهم الناجحة في تزييف تاريخ العرب والمسلمين . نريد أن نعطى للقرآن حقه في مدارس المسلمين ، أما أن يكون تدريس القرآن والسنة تحت مسمى التربية الدينية التي تتفرع إلي إسلامية ومسيحية فهذا ما نرفضه لأنه تضحية بخمسين مليونا من المسلمين المصريين مقابل ثمانية مليونا من المسيحين الذين يحرصون علي تعطيل مصالحهم ومصالح الدولة ليذهبوا إلي الكنيسة صباح كل أحد من كل أسبوع . نريد أن يكون القرآن مادة إلزامية وأساسية في التعليم العام حتي تعود لمشايخنا هيبتهم ويعود لهم احترامهم ، أما إن تكون التربية الدينية مادة ثقافية فقط لاتدخل درجاتها في المجموع العام للاختبارات النهائية فهذا تحقير لكلام الله ولسنة نبيه . فاذا كان كلام كانط وهيجل

وماركس وانجلز أساس رسوب ونجاح طلاب الثانوية العامة فإنه يحز في النفس أن يكون القرآن والحديث من المواد الهامشية بالنسبة للمجموع ولاتدخل في التقدير النهائى للطلاب . أليست تلك علمانية صرف ؟ أليست تلك واحدة من ثمرات التعليم الغربى الذي يفصل بين التعليم الدينى وغير الدينى ؟ لقد وضعت مادة التربية الإسلامية على الهامش استحياء وخجلا ومجاملة لأهل الإسلام ، ولو كان بوسع القائمين علي أمر المعارف في مصر الغاؤها لما ترددوا لحظه في ذلك حتي يريحوا أنفسهم من عبء تدريس مواد ثقيلة لاتناسب أمزجة العائدين من الغرب والشرق ، وحتي يحفظوا لأنفسهم صداقة الأمريكان والروس والانجليز وحتي يرضى عنهم الغرب والشرق ، ويضعاهما في مصاف الدول المتقدمة .

إن الطفل المسلم إذا قضى من عمره المرحلة الابتدائية في جو إسلامي صحيح يستطيع في المراحل التعليمية التالية أن يشق طريقه نحو الكمال دون عناء ودون مشقة . فإن عمليات الاصلاح المستقبلية عقب تخرجه حسب النظم الحالية تكاد تكون مستحيلة علاوة على كونها غير ممكنة وغير واردة فهي لن تكون في مصلحة أي من القائمين علي الأمر ، ولكن إذا علمنا أطفالنا أن نابليون جاء إلي مصر ومعه الخير كله ، وأن هدى شعراوى رائدة عظيمة وأن تاريخ مصر المضىء بدأ مع ظهور عبد الناصر ، وأن العالم الإسلامي ما كان له أن يستمر تحت ولاية الأتراك ، لذا رسمت الصورة الفظيعة عن الأتراك في أذهان أطفالنا الذين كبروا وتقدموا في السن وهم يخافون من العفريت التركي ، وإذا علمنا أطفالنا أن العربية ليست لغة حضارية ، ومن ثم علمناهم الانجليزية والفرنسية والألمانية ففشلوا فيهم جميعا وبذا جهلوا العربية وبديلاتها ، واذا علمنا أطفالنا أن

الغناء حلال ودربناهم عليه وانتخبنا منهم مغني وملحني المستقبل ، وإذا علمناهم أن الرقص رياضة فرقصوا وتراقصوا ورشح منهم نجوم المستقبل في هز الوسط ، واذا علمنا أولادنا أن الاختلاط لاعيب فيه وإنما هو مظهر حضاري صرف فلكل ولد أو بنت أن يجالس ويخالط صديقا وصديقة وكلما زادت دائرة الاصدقاء والصديقات كلما دل ذلك علي تفتح عقلية الطفل أو الطفلة الذي سيكبر فيما بعد ليتخير كل خليلا أو خليلة ، إذا استمر ذلك النمط الشيطاني في تعليم الأطفال فإننا لانندم ولانحزن لما تطالعنا به الجرائد صباح مساء من جرائم ترتكب في أحصن البيوت وأيضا في أضعفها حرصا علي احترام الأخلاق الفاضلة . وذلك أن السبب خارج عن ارادة الوالدين وخارج عن رقابتهما ، إنه يأتي من المدرسة ويزرع في نفس ذلك الشاب أو تلك الفتاة منذ نعومة الأظفر وهما في المرحلة الابتدائية وليس بعدها جديد يضاف ، وليس بعدها نبتة تنبت ، وليس بعدها غرسة تغرس فتثبت .

لذا فليس عجيبا أن يصدر سلمان رشدي كتابه المقيت الآيات الشيطانيه لينال به من حياة وتراث وفكر المسلمين قديما وحديثا ، فسلمان رشدى في الأصل مسلم هندى ، وقد لايعرف الكثيرون أن المسلمين الهنود والباكستانيين محافظون ومتمسكون أكثر من بعض المسلمين العرب ، ويكفى أن نقدم الإمام المفكر أبو الأعلي المودورى مثلا علي ذلك التمسك بالدين الإسلامي وتعاليمه ونصوصه الثابته . الا أنه يبدو أن والدي سلمان رشدي لم يرضيا أن يكون ابنهما مسلما كبقية التسعين مليونا من المسلمين الهنود ، لذا ربوه في أعرق المدارس الانجليزية وحينما تخرج من المدرسة والجامعة ما كان أمامه الا أن يصادق زملاءه من خريجى هارو الذين

يسخرون من بنى جنسهم الانجليز فما بالك بسخريتهم من هندي مسلم .
لذا كانت محاولة رشدي المستميتة أن يتخلص من هنديته وذلك بحصوله علي الجنسية البريطانيه ، وكانت محاولته الثانية المستميتة أن يتخلص من صفته الإسلامية بأن يكتب اشعارا ومؤلفات بالانجليزية يلتزم فيها بالناموس الانجليزي .وختم ولاءه للانجليز باصدار الآيات الشيطانيه ، التي صور فيها الكثير من الفحش والرذيلة حتي يرضى عنه زملاؤه من الانجليز والغربين بصفة عامة . ولكن باءت كل تلك المحاولات بالفشل الذريع حينما استنكر جميع مسلمي الأرض ومتعقلي الأرض تلك المحاولة الدنيئة
وإذا كان سلمان رشدي قد تنكر لدينه وأهله فهل يؤتمن علي الجنسية البريطانيه والفكر الانجليزى والدين المسيحى ، إنه منبوذ الآن من الانجليز الذين صنعوه ، وقد نبذ نفسه من الجماعة الإسلامية باصدار ذلك الكتاب الذي سيكلفه حياته دون أدنى قضية أو مبدأ أخلاقي يذكر مقابل ذلك .
إن المفكر يدفع حياته ثمنا لمبدأ أو عقيدة ، وهو يضحى بحياته مقابل أن يدعو الآخرين للتمسك بذلك المبدأ أو تلك العقيدة ، والتاريخ ملىء بهؤلاء الشهداء الذين حفل بهم تاريخ الفكر ، ولكن ماهو المبدأ الذي دفع سلمان رشدي حياته ثمنا له : هل ذلك المبدأ هو أن نسمى مومسات البيكاديللى بأسماء زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ أن سلمان رشدي يعلم أن زوجات الرسول أطهر نساء الأرض ولقد رباهن رسول الله بهدى من الله ، ولم يربيهن سارتر وسيمون دى بوفوار رباهن الرسول ولم تربيهن هدي شعراوي رباهن الهدي والوحي ، ولم تربيهن الليسيه فرانسيه أو ايتون وهارو ، أو كمبروج واكسفورد ، هل كان سلمان رشدي يتوقع من كتابه أن يتبعه أحد حينما اتخذ من الحجاب شعارا لبيوت الدعارة ؟ هل الحجاب

يصلح أن يكون شعارا لبيت الدعارة ؟ في علمنا أن الحجاب شعار لحماية المرأة ومن وضعت الحجاب فهي من بلاد المسلمين أو العرب ، فهل قصد سلمان المرتد أن يقول أن جميع نساء المسلمين والعرب مومسات ؟ هل ذلك هو المبدأ الذي يدفع حياته ثمنا له ؟ لاتعليق لنا علي هذا . لأن هناك من يتولي أمره في الدنيا ، فعشرون الف جنيه استرلينى أسبوعيا تكلفة حراسة سلمان رشدي أمر يرهق ميزانية الخزانة البريطانية كما أن دافعي الضرائب البريطانيين بدأوا يتضايقون من دفع ذلك المبلغ ، وبدأوا يلعنون اليوم الذي انضم فيه سلمان رشدي إلي صفوف البريطانيين . وحينما ينتهي عمره بارادة الله علي أديم الأرض فهناك لقاء مع الخالق يحاسبه فيه عما قال وعما كتب . ونحن لاندري ماذا سيقول سلمان رشدي لله سبحانه وتعالى ولاندري ما سيقوله للملكين عند دخوله قبره عن عمره فيما أبلاه وعن ماله فيما أنفقه وعن علمه فيما استخدمه ، إلي آخر ذلك السيل من الأسئلة المتعاقبة السريعة التي تكون ردودها الناجحه متمشية مع روح الاسلام وهدي الرسول الكريم . ان سلمان رشدى أنموذج طيب ومتواضع لطفل تربى في حضارة الغرب ، وعلمه فكان أن طوعه الغرب - دون عناء - لخدمة اغراضه خير تطويع ، وكان جرم والديه أعظم حينما سمحا لولديهما أن يعيش حاله فصامية : فلا هو بقي مسلما ولا هو مقبول بين الانجليز والبريطانيين . ان الحالة النفسية المستقرة لأطفال المسلمين هي المسئول الأول والأخير عن تربيتهم وتنشئتهم ، ولاتكون الحالة النفسية مستقرة الا بمدد من كتاب الله وسنة رسوله وعطر صحابته الأبرار فهدوء الطفل المسلم وابتعاد العدوانية عنه وعمق التفكير حتي في عمر الزهور لا يأتي به الا منهج إسلامي قويم وليتعظ المسلمون والعرب من تجربة سلمان

رشدي ففيها درس وموعظة ، وهي أن تربية ابنائنا في الغرب ليست خيرا وليس مكسبا كما يظن البعض ، ولتفتح بلاد المسلمين صدرها لتسترد ابناءها مرة أخري وكفاهم تشردا وسياحة وغربة ، فلو كان سلمان رشدي في الهند وبين تسعين مليونا من مسلمى الهند لما جرؤ أن يكتب كلمة مما جاء في ذلك الكتاب . فالرد عليه سيكون كما يعلم وكما نعلم أن يمزقوا جسده بعدد أحرف كتابه .

ورابع تلك الشروط التي نتصور توفرها لقيام دولة اسلامية قوية هو أن تعود المرأة المسلمة إلي بيتها وكفانا جريا وراء ما دعي اليه المتغربون والمتشرقون من أنصار حرية المرأة ومساواتها بالرجل . نحن ندعو إلي تعليم المرأة وندعو إلي حصولها علي درجتي الماجستير والدكتوراه . وندعو إلي أن تعمل ، ولكن ، أي درجات تحصل عليها ؟ وأى عمل تعمل ؟ إن الله خلق المرأة ويعلم أن كل عضو فيها له وظيفة تتعلق بالأسرة المسلمة وبالزوج المسلم وجعل فيها من القدرات والمواهب مالم يجعل في الرجل ، وجعل الولاية عليها للرجل لأن المرأة خلقت لتكون تابعا للرجل لالتكون ندا له ، وعليه فاننا غير مستعدين لمخالفة شريعة الله في خلقة الرجل والمرأة لنطيع فلانا أو فلانة ممن يرددون أن المرأة تساوي الرجل في القدرات الذهنية والعقلية وأنها تساويه في انجاز الأعمال وتحمل المخاطر والصعاب . وإذا سلمنا بما يقول هؤلاء الأدعياء فان حقيقة الأمر تكون ماساة مفجعة ، فتلك المرأة الناجحة في نظرهم ضحت بكثير من حياتها وسعادتها لتحقق نموذجا طلب اليها أن تصل اليه وإذا كانت سيمون دي بوفوار في أخريات حياتها الشقية قد أعلنت ندمها - حيث لاينفع الندم - علي ما قضته من حياة لا قيمة لها وتمنت لو أنها

تزوجت وأنجبت بدلا من جريها وراء أوهام وأباطيل سارتر وأوهامها وأباطيلها [illegible]ي . إذا كانت تلك أكبر رأس في فريق دعلة حرية المرأة ومساواتها بالرجل في فرنسا والعالم المتمدن فما رأى مفكرينا ومثقفينا ؟ هل يعلم العامة أن كل امرأة ناجحة في عملها وتحاول أن تساوي الرجال أو تنافسهم في وظائفهم ورائها قصة مريرة من فشل الحياة الزوجية ، أو ورائهما طفل فاشل ، أو ورائها مدمن مخدرات من ابنائها البالغين . هل يعلم مثقفونا ومفكرونا أن دعواهم إلي تحرير المرأة سهلت الانحراف وسهلت اتخاذ الخلائل من النساء والأخلاء من الرجال ؟ هل علم مثقفونا أنصار تحرير المرأة أن دعوتهم إلي الصداقات البريئة أنتجت برودا عاطفيا لدي المرأة تجاه الرجال فما عادت تتسع بالرجل حتي تجربه ؟نعم تجرب أخلاقه وثقافته وعلمه ومعرفته بالأمور التي تتعلق بالحياة الزوجية قبيل الزواج ، وبالطبع يفشل كثير من الشباب في تلك التجربة ، ولذا يواجهون بالرفض ، وما عليهم إلا محاولة خطبة فتاة ثانية والخضوع لنفس ظروف التجربة الأولي ، لأن وسائل الإعلام رسخت فى أذهان الشباب والفتيات أن التجربة خير ألسبل لبناء حياة زوجية سعيدة ، ومن يفشل فعليه باعادة الكرة . لكن وللأسف الشديد أن معظم الفاشلين لايحاولون مرة ثانية ولايكون أمامهم الا التقوقع في ذاتهم وإصابتهم بالعقد النفسية الخطيرة وعداوتهم لأحلي متع الحياة الدنيا - المرأة ، أو أن يسلكوا مسلكا آخرا وهو التفرغ للنساء وتصيدهن والجري ورائهن حتي يحصلوا علي وسام « زير نساء » مع مرتبة الشرف الأولي .

إن خروج المرأة المسلمة من بيتها وعملها مع رجال أجانب ، ليسوا محارما لها ، نكبة حلت بعالمنا الإسلامي ، ولكن أن تعمل المرأة في وسط

كله نساء لايراهن فيه رجل أجنبى فذلك أمر نحمده ونرتاح إلي عاقبته .
وعليه فان عمل المرأة هنا يكون دعما للمجتمع المسلم ، ونسعد بناء علي ذلك أن تقوم مدرسة مسلمة بتدريس بنات المسلمين ، وأن تقوم طبيبة مسلمة برعاية المريضات المسلمات ، وأن توجه الأمهات المسلمات مربية مسلمة. إن المرأة ليست نصف المجتمع كما يقول أنصار تحرير المرأة ، إنها كل المجتمع . فهي الأسرة : الزوج السعيد لابد أن وراءه زوجة مخلصة حنون تتفرغ له ولأعماله ولأولاده ، والأولاد السعداء هم الذين يتربون بين أم سعيدة وأب سعيد . وما المجتمع الا آباء وأمهات سعداء وأطفال يشاركونهم تلك السعادة ، منذ ستين عاما كان النقاب صونا للمرأة المصرية ، أما اليوم فأن وجه المرأة المصرية لايصونه شيء إلا من رحم ربى ، فلا غرابة أن تقع حوادث اغتصاب في وضح النهار ، إن كشف الوجه اساس الفتنة ومبعث كل رذيلة . ولا مبالغة عندنا إذا قلنا أن تغطية الوجة تكون أوجب من تغطية اليدين والساقين . لأن الوجه هو كل المرأة لأن الوجه فيه الشفتان وما فيهما من إثارة وفتنة وجاذبية ، وفي الوجه العينان وما قال فيهما الشعراء من غزل عفيف وغير عفيف ، وفي الوجه الشعر وما يوحي من إثارات جنسية لا تبقي صبرا ولا تزر حكمة لدي العقلاء ، وتحت الوجه الرقبة ، جيد المرأة النافر دوما يترك نهباً لكل عين زائغة ولكل فكر مارق ، ويبقى أن فى الوجه التعابير الصريحة وفي تلك التعابير مايوفر الكلام أو التصريح بموعد أو لقاء لكل من اتبع هواه من أنصار حرية المرأة ومن أنصار إتخاذ الخليلات .

وخامس تلك الشروط التي نتصورها لقيام دولة إسلامية تعيد ماضى الإسلام الزاهر ، هو أن نعود بحياتنا السياسية كاملة إلي النظام الإسلامي

وقد يبدو للبعض أن هذا من معاد القول أو أنه مجرد تصورات هلامية لا ترقى أساسا لقيام دولة ، إلا أن الحقيقة غير ذلك . فالإسلام قد وضع تصورا صحيحا وصحيا للدولة القويمة . وأول بدايات قيام دولة متحضرة من وجهة نظر الإسلام هي الحفاظ علي الإنسان صانع الحضارات ومبدع الفنون والأداب ومخترع العلوم والابتكارات . وكل آية في القرآن الكريم وكل سنة في الأحاديث النبوية الشريفة تعلي من شأن الإنسان رجلا كان أو امرأة وترفع قيمته إلي أعلي عليين . فالنظرة الإلهية تعرف جيدا ما سيصل اليه البشر في القرن العشرين وأعتاب الحادي والعشرين من خسائر الركب الحضاري . ونضرب مثلا فنقول إن شعبا كالشعب الأمريكي قد ضحى بالانسان الأمريكى في سبيل صنع حضارة أمريكية تبهر العالم ، وإذا كان الشعب الأمريكي قد ضحى بنصف الأمة الأمريكية حين أهدر حقوق الأمريكيين السود ، فإنه ولاشك قد ضحى بما تبقى لدي السود وبما لدي البيض حين ألغي من وجودهم قيما أخلاقية عظيمة كالتمسك بالدين واسقاط العاطفة من الحساب .لذا كانت تحذيرات إميرسون (١٨٠٢ - ١٨٨٢) في نيو إنجلاند تدعو الأمة الأمريكية إلي التوقف وإعادة الحسابات مع نفسها . وكان إميرسون في ذلك الوقت المبكر يتنبأ بنظرة الشاعر والفيلسوف بما سيؤول اليه حال أمريكا في أيامنا هذه من انهيار في كل قيمة خلقية ، مع تصاعد النمو الحضاري ، إنها مفارقة عجيبة يرتفع بموجبها مؤشر الرقي والأزدهار العمراني وينخفض بموجبها أيضا النمو القيمى الأخلاقي لدى الإنسان الأمريكي ، ورغم ما يذل إميرسون وصحبه من جهود في سبيل توصيل مالديهم من مبادىء فلسفية أصطلح علي تسميتها بفلسفة التسامي أو التعالى إلا أن تأثيرها الاجتماعي كان

محدودا نظرا لشدة التيار التنموي الصناعي الحضري الذي كانت تواجهه تلك الفلسفه وهؤلاء الرجال من ورائها .

وفي عالمنا العربي الإسلامي فاننا نضحى لابجيل واحد فقط لكن بأجيال من أجل تكريس نظرية أو مذهب فلسفى وضعه أحد البشر الذين تمكنوا من رقاب عباد الله بطرق غير شرعية كالانقلابات العسكرية أو ما يدعي بالثورات البيضاء والحمراء منها . ولاتوجد شعوب غيرنا تمجد الأفراد وتقدس مبادئهم . شارل ديجول مؤسس فرنسا الحديثة مات وماتت معه أفكاره وخرج من ينقد مزاعمه وينتقد نظرياته السياسية ، ومن قبله مات هتلر وخرجت عليه أوروبا كلها تطارده وتطارد أعوانه ، أما من يثبت أنه عمل في جيش النازي فالويل له كل الويل وأقرب مثال علي ذلك كورت فالدهايم مستشار النمسا وقضيته المشهورة التي وإن كان وراءها اللوبى الصهيونى الا أنها تعطينا دلالة كبرى على مدى بغض الغرب لعبادة الأفراد ومذاهبهم رغم أن الغرب كله تحكمه مذاهب وضعية مرحلية تصل إلي نهايتها ربما بموت صاحبها أو الانقلاب عليه فكريا في السياسة أو الاقتصاد أو الحرب .

وفي مصرنا الغالية كنانة الله ، أرض الخير والخيرات نجد اليوم مآسى تتفطر لها القلوب ونسمع عن اختلاسات وسرقات سنوية تصل إلي الف ومئتى مليونا من الدولارات الأمريكية تمثل ثلث القروض التي تتسلمها مصر سنويا بفوائد ، ونسمع عن أنواع من حوادث القتل ما كنا نتصور وقوعها في أرض مصرية ، ولد يقتل أبويه ، ولد يقتل أمه ، ولد يقتل خالته ، ولد يقتل زوجة أبيه ، ولد يقتل جدته ، وهكذا وهكذا يكون إزهاق الأرواح حتي في الأقارب بين الأصول والفروع ، وهذا الحديث عن

العلاقة بين الأفراد هو شاغلنا الشاغل فعلاقة الحكومة أو الوزراء وصاحبى السلطة بالشعب لايهمنا أمرها لأنها وقتية ترتبط ببقاء المسئول في منصبه وإن كانت أثارها - إذا سيىء استخدام تلك السلطه - سيئة ومريرة . إن تهدم المجتمع القيمي لدي شباب المجتمع المصري وتهدم المجتمع القيمى لدي المرأة المصرية ، وتهدم المجتمع القيمى لدي الطفل المصري إنما نتج عن انكار وتنكر صريحين للنظم السياسية الوضعية المتعاقبة ، فمن عهد الملكية الطاغية إلي عهد الثورة الناصرية الأكثر طغيانا رغم نصاعة بياض أيدي صانعيها ، إلي التصحيحية الساداتية ذات الأنياب والأظافر والمفارم ، إلي عصر لانعلم له شكلا ولا لوناً ولا مزاجا فنحن نعيش اليوم في مصر عصر لا مبالاة مطبقة تأتي علي الأخضر واليابس إن هى استمرت علي ما هي عليه . ويعجب المرء حين كانت تكبت كل كلمة ويمنع كل رأى يخالفان السلطة المهيمنة ، لكن العجب يتزايد حين نري تلك الآراء تنشر علي الملأ في جرائد المعارضه داخل وخارج مصر وفي بعض الصحف الرسمية أحيانا ، وتناقش قضايا فكرية ساخنة تغيظ السلطة ، الا أن الحصيلة الايجابية لتلك الحرية تكون صفراً وبينما تكون الحصيلة السالبة في ازدياد مستمر ، فنحن نقرأ عن تجاوزات أحد المسئولين أو الوزراء ، لكنا لانسعى إلي التغيير أو الاعتبار بأخطاء الغير ، ولقد عجبت يوما وأنا أري أحد كبار المسئولين يحرص علي قراءة كل مايكتب في صحف المعارضة ويناقش سلبيات الوزراء والمسئولين ، وقد خصص وقت مكتبه وعمله لقراءة تلك الصحف مما يعتبر غلا وسرقه واختلاسا لوقت العمل والشعب أولا ، وثانيا أنه تعمد تعطيل معاملات كثير من الناس دونما داعي ، وكنت ممن تضرروا من ذلك ، تلك الحالة

الفصامية السلوكية التي تنتاب المصريين لاتنحصر في حدود الوطن إنما هي خارجه أيضا .

إننا كمصريين أصبحنا نكره بعضنا البعض ونمقت بعضنا البعض ، والشك في نوايانا وتصرفاتنا نحو البعض الآخر أصبح مصدر إتهام بسوء النية إلي أن يثبت العكس ، وكل ذلك نتيجة القهر السياسي والخوف من بطش السلطة ويدها الطولي ، تلك السلطة السياسية التي اتخذت من النظم السياسية غير الإسلامية أساسا للحكم . وحين تسأل أي مسئول عن مدي تطابق نظام حكمه مع الروح الاسلامية فانه يبتسم واثقا فيقول أن دستور الدولة ينص في مادته الثانية أن مصدر التشريع في الدولة هو الإسلام ، وأن تسعين بالمئة من قوانين الحكم مستقاة من الإسلام . إذا صح ذلك القول فما معني أن يوجد دستور للبلاد يعدل ويفصل وينمق ويزوق بين حين وأخر حسبما يتفق والسلطة صاحبة المصلحة الأولي في تلك التعديلات التي غالبا ما تكون في صالحها .

إن تشكيل المجالس النيابية كمجلس الشعب والشوري اتخذ منذ زمن بعيد عندما عرف في مصر برلمان ومجلس للشيوخ والنواب ، فنحن لانتكلم عن هذين المجلسين بصورتهما اليوم ، لكنا نعود إلي الوراء ، إلي التاريخ لنجد أن التاريخ يقول أنهما أنشأ تقليدا لأوروبا وخصوصا بريطانيا ، وقد كان ذلك تتويجا للتبعية المصرية لبريطانيا في كل شيء حتي في مصدر التشريع ، وحينما اعتبرنا خلع الانجليز من مصر نصرا بطوليا ومعجزة تاريخية ، فإننا أبقينا علي أخطر ما أتي به الانجليز وهو قبة البرلمان ، فكان لزاما أن تخلع وقت خلع الانجليز ، وكان علي الإنجليز أن يأخذوها معهم لأن دورها قد انتهي . ذلك البرلمان لم ينصر الشعب يوما واحدا في

حياته ، ومن دخله كان يأمل تقديم الكثير ويخرج منه وقد فقد أكثر مما كان يأمل أن يقدم . ولقد اتخذ البرلمان المصر ي مطية في عهدي عبد الناصر والسادات لإنفاذ مايرون متفقا وأهوائهم الشخصية البحتة لينالوا من ذلك المجلس الموافقة والتأييد ، أما ما يرون أنه سيحظى بمعارضة ولو صوت واحد فانه يتخذ قرار بشأنه تحت أقبية وقباب القصور وتحت ساتر من دخان السيجار والسجائر وغيرهما مما له دخان ومثالنا علي ذلك زيارة السادات إلي القدس ، وما أعقبها من تطبيع للعلاقات وتهويد للعلائق بيننا وبين اسرائيل ، واعتبار عداوات اليهود - منذ خلقهم - للأنبياء وللرسول عليه السلام ، ولنا نحن في أربعة حروب طاحنة ، اعتبار كل ذلك مجرد حاجز نفسى فقط تولي السادات كسره وتحطيمه لينال بذلك جائزة نوبل مناصفة مع شريكه الشاويش مناحم بيجن بطل مذابح ديرياسين ، باقر بطون النساء وصاحب اجتياحات لبنان وخروج الفلسطينين منها بلا سلاح .

وإذا كان هناك من يدعي أن دخول العناصر الإسلامية البرلمان سيعتبر كسبا فكريا عظيما فان ذلك محض جري وراء أوهام . ولنعتبر بجهود من دخل ذلك المجلس من نواب معارضين ومؤيدين من علماء معاصرين أفاضل نجلهم ونحترمهم ، ماذا قدموا ؟ لاشيء . وفي كل مرة يقدمون فيها علي تغيير باللسان والقلب يجدون غضب الغوغاء من مؤيدى الحكومة ويجدون المقالات الساخنة في انتظارهم تسطرها ذوائب أقلام أشخاص معروفين بعينهم تصفهم بعدم الولاء للوطن . ويزيد الأمر خطورة حين تسقط العضوية عن هؤلاء الأعضاء الذين يخرجون من ذلك البرلمان وفي نفوسهم غصة . ان اشتراك أي عنصر إسلامي جاد في تلك البرلمانات إنما يعتبر مساهمة فعلية في الحكم بغير ما أنزل الله . لأن وجود تلك العناصر

مهما كان شعبيا فإنه يبقى وضع أقلية ضئيلة إذا ما قيس بالأغلبية الساحقة الماحقة لحزب الحكومة . لذا فإن تصويت العناصر الإسلامية ضد أي من مشاريع القوانين أو الاجراءات غير الإسلامية يعتبر كانعدامه ذلك أن العبرة في تلك البرلمانات هي بأصوات الموافقين وهم كثر والحمد لله . إذن لاجدوي أن ينزل عالم فاضل جليل إلي مستوي مهاترات مسئول لايعرف أن أبسط قواعد الحوار حفظ اللسان من الذلل . ولاداعي أن ينزل ذلك العالم من احترام الملايين في انحاء العالم الإسلامي إلي خطأ منافقة رأس الدولة مستخدما في ذلك صفة من صفات الله . ولا داعي أن يضيع هذان العالمان وقتهما في مساءلة مسئول لا علم له في الدنيا الا أنها كرباج وزنزانة وسجن كبير . إن اقدام هؤلاء العلماء الأفاضل علي دخول البرلمانات أمر نحترم فيه حسن النية لكننا نخشى أن يصيبهم تلوث المداهنة إن هم أحسوا بالتعب والإجهاد فإن الخصم قوي متمرس في نزال الشرفاء وقهرهم والنكاية بهم والتنكيل لهم .

لذا يبقي مصدر الحكم في الحياة السياسية الإسلامية هو ماجاء في القرآن الكريم وماسنته السيرة العطرة لرسولنا الكريم وصحبه الأجلاء ، ومع ذلك فنحن لانقلل من شأن فقهاء القانون المصري الذين يضعون الدساتير والمؤلفات القانونية الأخري ، فهم عقليات فذة تدعي لممارسة نشاطها الذهني ولكن في النهاية يساء اختيار المكان والوسيلة ، فمكان تلك الدساتير دولة غير إسلامية ، ووسيلتها التطبيقية تكون أيضا في دولة غير اسلامية وبأيدي أناس غير مسلمين ، والا فما موقف المشرع حين يسن قانون بعدم التجمهر ويضع عقوبة تصل إل المؤبد لمن يفعل ذلك فيموت من يتجمهر بأحدي وسيلتين إحداهما الموت أثناء التعذيب للإقرار

بموالاته لإحدي الجهات الخارجية التي تعمل ضد مصر ، أو لأحدي الجهات التي بالداخل والتي تدعو إلي العمل بالشريعة الإسلامية التي وصمت بالتطرف أما الثانية فهي الموت من طول البقاء في زنازين ومعتقلات السلطة التي ينفذ فيها حكما بالسجن مدي الحياة حسبما يري الدستور المبجل ، هل علم ذلك المشرع أن الحبس في الإسلام عقوبة لا يحبذها معظم العلماء ، لأن حبس الناس فيه إثم عظيم إذا ماوجدت النصوص الصريحة إما في القرآن أو في السنة . هناك حبس تحفظى فقط لانتهاء التحقيق ، أما حبس انسان مدي الحياة فذلك أمر يتدخل فيه البشر للإخلال بميزان العدل الذي وضعه الخالق لمخلوقيه - ففي الإسلام جرائم الحدود معروفة وعقوباتها محددة ، فالقاتل عمدا يقتل ، والقاتل خطأ يقاد ويفدي ، والسارق يقطع ، والزاني يرجم أو يجلد والمرتد يهدر دمه وليس لحرية الفكر مجال هنا ، أما ما يطرأ من منازعات وقضايا حياتية عصرية في أيامنا هذه فلينظر فيها أهل العلم من مشايخنا الأفاضل فقط وعلي ضوء ما في الكتاب والسنة ، أما أن تكون عقوبة القتل العمد هي السجن مدي الحياة ، أو أن تكون عقوبة القتل الخطأ سنوات لاتتعدي أصابع اليد ، فذلك سبب في تفشى قضايا الثأر وسبب في انعدام الأمن بين أسرتي القاتل والمقتول .

وختاما ، فإن تصورنا لقيام دولة إسلامية صحيحة لايتم بين يوم وليلة ، فالإسلام حين نزل برسالته على صدر نبينا الأكرم لم ينزل دفعة واحدة ، (ونحن لانطالب بتطبيقه دفعة واحدة ، إنما نبدأ بالأساسيات أولا ، فلا) يعقل أن نعلن قطع علاقتنا بالغرب وتحجيم تعاملنا معه فجاة والا احتلوا مصر بما لهم عليها من ديون ويعيد التاريخ نفسه كما حدث في

عام ١٨٨٢م حيث احتلت بريطانيا مصر وفاء لديونها علي الخديوي . كما لاندعو إلى الفصل بين الذكور والأناث في المدارس والمعاهد والجامعات والوظائف الحكومية والمحال والشركات بين عشية وضحاها والا فاننا نقفز في ظلمة بئر عميق ، لكن لنبدأ خطوة خطوة ، ولنعتبر أن جيلنا ومن لحقه قد تم تكوينهم الفكري حسب الظروف التي نشأوا تحتها . ولنبدء مع الجيل الجديد بروح إسلامية جديدة فنعلمهم أن اختلاط الرجال بالنساء حرام إلا بين المحارم ، ولنعلمهم أن أية علاقة بين الرجل والمرأة حرام الا الزواج لنعلمهم أن صداقة الرجل للمرأة هى خلوة شرعية وأنها اتخاذ أخدان حسب نص القرآن ، ولنعلمهم أن الطلاق أبغض الحلال عند الله ، وأيضا لنعلمهم أن الزواج نعمة من الله ، وأن الزواج المبكر صون للعرض والنسل والعقل ،ولنعلمهم أن تعدد الزوجات تشريع أريد به صالح الأمة المسلمة ، ولنعلمهم أن معاشرة الزوجات تكون بالمعروف وليس أمام محاكم الجنايات والجزئية والاستئناف ، ولنعلمهم أن الأمور الزوجية يفصل فيها العقلاء والحكماء من ذوي العدل الأقرباء وليس ضباط أقسام الشرطة وجنودها ، لنعلمهم أن كل ما يذهب العقل حرام فالخمر حرام وما شابهها من بيرة وكل مختمر والحشيش حرام ، والأفيون حرام ، وإذا كانت السيجارة لافائدة منها وضررها أكثر من نفعها فهي حرام ، لنعلمهم أن الولاء يكون للأمة الإسلامية وليس لكيانات ضعيفة وأوطان مبعثرة علي خريطة العالم ، لنعلمهم أن هناك تسعين مليونا مسلما في الهند يعانون من اضطهاد الحكم الوثني ، وأن هناك أربعين مليونا في الاتحاد السوفيتي يعانون من الحكم الشيوعي ، ولنعلمهم أن الإسلام ليس هو وطننا فقط ، إنما الإسلام هو باكستان وبنجلاديش ومورو في الفلبين والصين ، وان الإسلام كان يوما

في فرنسا واليونان ، وأن الإسلام ليس كما يتصوره البعض لحية وثوبا وإن كانا مظهرين نعلي شأنهما لأنهما من السنة الكريمة ، لنعلمهم أن الإسلام سلوك تنتج عنه العشرة الحسنة بين المرء وزوجه وبين الأب وأولاده وبين الأم وأولادها ، بين الأقارب ، بين صاحب العمل أو المصلحة ومرؤسيه .

باختصار شديد نحن بحاجة إلي اعادة بناء فكر الأجيال الجديدة وتلك مهمة استغرقت من الرسول الكريم ثلاثة عشر عاما ، فتري كم ستستغرق تلك العملية في بلاد اسلامية معظم قيمها الأخلاقية مصبوغة باللون الأوروبى الغربى أو الأمريكى ، بعد ذلك نعلم ذلك الجيل أن الزاني المحصن يرجم حتي الموت ، وأن الزاني غير المحصن يجلد في ملأ ، وأن السارق الذي يثبت تكرار فعلته تقطع يده التي سرقت أول مرة ، وأن أعادها قطعت اليد الثانية ، وإن اعادها ثالثة قطعت ساقه ، ولنعلمهم أن القتل من الكبائر لأنه ازهاق لأعز ما وهبنا الله من نعم وليس لأحد دخل فيه الا الخالق سبحانه وتعالي . أما القتل الخطأ فله عقوبة القود والدية . ولنعلمهم الحرية في التعامل مع المسئولين ، فلا طاعة في معصية ، ولاتدليس ولا نفاق ولا مهادنة ولا مجاملة في كل ما يمس حدود الله أو يخرق سنة رسوله . ولنعلمهم أن الرازق هو الله ، وأن مجري النعم هو الله ، وليس لأحد ممن علي الأرض سلطة الوهب أو المنح ، لنعلمهم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب . لنعلمهم أن الله يفتح علي الظالمين والكافرين والفاسقين ويرزقهم ليبتليهم وليكون ذلك الرزق وبالا عليهم يوم الحساب فليس لنا أن نقلد هؤلاء فيما يقدمون عليه من اخطاء وخطايا . لنعلم ذلك الجيل أيضا أن من غناء الرجل والمرأة ما هو حرام ، فإذا كان المغني امرأة لرجال حرم ذلك قطعا لأن صوتها عورة في الصلاة فكيف يكون مباحا في

غيرها ومع الطبل والزمر والمشاهدة ، أما إذا كان المغني رجلا فهذا ما يستدعي القول أن من يقدم من الرجال علي الغناء فانه يدخل في صوته طراوة وفي نفسه رخاوة وتخلعا وتبذلا لا يليق بالرجال ، مع ما يصاحب ذلك من تمايل وتبختر مع صوت الوتريات والنحاسيات والشراب في أحيان كثيرة ، ولنعلمهم أن الموسيقى عرفت في الإسلام ولكن في قرع طبول الحرب ، وأنها ينبغى أن تبقى موسيقى الطبول والنحاسات التي تنادي بالحرب فالمسلم خلق جادا من أول ساعة في حياته حين يؤذن في أذنيه عند الولادة ، ذلك الأذان تذكرة بما خلق له ، وهو جواز السفر وتصريح التجول في هذه الدنيا الفانية ، فالحرب والقتال والجهاد هم رموز الصحة أو أنعدام صحة المجتمع المسلم . ولنعلم ذلك الجيل أن المسلم يتربص باعداء الله فينقض عليهم ويبادئهم القتال ويكون من سيفه ورمحه بدء التخاطب مع اعداء الله . لنعلمهم أن اعداء الله هم اعداؤنا نحن المسلمون لذا فمودتهم لاتجب ، وينبغي أن نكيل لهم العداء ونناصبهم العداوة ، ولنعلم ذلك الجيل أن مهادنة اعداء الله هي بحث عن حياة رخيصه دنسة نعيشها مع قوم غضب الله عليهم . لنعلم ذلك الجيل أن الخلافة هي أساس الحكم ، وأن حاكم المسلمين هو أعلمهم بفقه الكتاب والستنة ، وأن حاكم المسلمين أعقلهم وأتقاهم ، ولنعلمهم أن الولاية للحاكم عندئذ تكون فرضا لاخيارا . لنعلمهم أن الحاكم الذي يرضى عنه العباد يرضى عنه رب العباد .

ويبقى أن نعلم ذلك الجيل قبل كل شيء وبعد كل شيء أن الإسلام أسلوب حياة متكامل ، وليس مجرد ثقافة أو غذاء روحى . لنعلمهم أن الإسلام جاء متمما لمكارم الأخلاق ، لنعلمعهم أن من يحاول تسطيح الأفكار الإسلامية وتفريغها من مضمونها إنما هو يمس جوهر مكنون الأمة

الإسلامية بسوء ، لنعلمهم أن الإسلام أزخم وأقوى وأنصع من كل ما أنتجت قرائح فلاسفة الشرق والغرب ، لأنه ثابت ، وهم لم يثبتوا ، لأنه لم يتغير وهم تغيروا ، هدانا الله وهدي المسلمين لما فيه العمل بكتابه وسنة نبيه الكريم ، وبالله التوفيق .

بشير العيسوى

الرياض في ١٠ شعبان ١٤٠٩ هـ

الموافق ١٧ مارس ١٩٨٩م

١ ـ حضارتنا والفوضى

ينظر إلي الأدب، والفنون في كثير من بلادنا نظرة ازدراء وتحقير نابعة من عدم تقدير وسوء فهم لدور الأدب . وإلي عهد قريب كان العامة يعتقدون أن من اراد ان يضيع حياته هباء فعليه أن يشتغل بالادب . وكانت القصص تصور الولد الذي يقرظ الشعر أو يكتب القصة أنما هو ولد مارق علي النمط الحياتي للناس وأنه شاذ يجب أن يتولي امره طبيب معالج.

ولكن الشعوب لاينمو عودها ولاتكتمل حضارتها الا بالأدب . والعرب حين ازدهرت كل حضارتهم العلمية كانت حضارة الادب تسير جنبا إلي جنب مع حضارة العلوم . وكان كل عالم هنا يقابله اديب هناك . وكان كل طبيب هنا يقابله شاعر هناك . العلوم والطب والهندسة تقدم للانسان شيئا ما ، أما الأدب والفنون فتقدم للإنسان شيئا اساسيا . ولا نشطط اذا قلنا أن اليوم الذي انحط فيه الأدب العربي ، وتدهور نسقه ، هو ذات اليوم الذي انحطت فيه الحضارة العربية ، وهو ذات اليوم الذي بدأ فيه التخلف والجهل والمرض يحل في ديارنا ، فاصبحت وكانها اثر بعد عين ، واصبحنا نعيش متطفلين علي ما ترك لنا آباؤنا وسابقونا . أصبحنا نسترجع ما كتبوا من اشعار كانت لاتصلح الا لهم ، ولا تعالج الا مشاكلهم ، تلكالاشعار نستعيدها دون حياء من انفسنا معبرين عن عجزنا وعن تقاعسنا عن كتابة مثل ما كتبوا مبرهنين دون شك عن عقم حضارتنا

---

* نشرت في جريدة الشرق الأوسط (غير كاملة) في العدد رقم ٢٦٢٩ بتاريخ ١٩٨٦/٢/٨ م تحت عنوان « نهضة الفكر العربي الحديث ... كيف ؟

الأدبية ومثبتين لانفسنا قاعدة العجز والخوف والضعف التي تقول : «ليس في الامكان ابدع مما كان » . وايضا في العلوم والهندسة والطب والزراعة اخذنا نعتمد علي علماء الغرب وأهله الذين سرقوا تراثنا ونسبوه اليهم واسقطوا اسماء المنظرين والباحثين العرب، وبدأوا يحدثون ما أخذوه ويزيدون عليه ، ثم يصدرونه الينا نحن العرب والذين نتضور جوعا لعلومهم ، فلا يطعموننا الا الفتات . وقد رأونا نتلمظ شوقا لنحظى بمثل ما حظوا به في مجالات العلوم التطبيقية فاعطونا آلات ومعدات نتلهي بها ، واذا توقف ترس فيها انتهت متعتنا وأخذنا نطلب غيرها غير مفكرين فى اصلاح المعدة الأولى ذلك أننا لم نتعلم كيف نصلح مافسد ، ولكنا تعلمنا شيئا واحداً فقط وهو كيف نلهو ونفرح بما بين ايدينا ، وهكذا ينمو الغرب وتتعمق حضارته العلمية ، أما نحن فتنحدر إلي أسفل وتتسطح حضارتنا العلمية ، حيث لا نأخذ الا بالقشور فقط .

واذا دخلت مصنعا أو مختبرا في دولة راعك ما فيه من اجهزة وادوات ، وبالامكان ايضا أن تري نفس المصنع أو المختبر في دولة عربية قادرة ماليا علي الشراء ولكن لن يروعك أن تراه في حاضرة العرب ذلك أننا اشترينا بما نملك من أموال ذلك المختبر . لكننا لم نستطع شراء السنوات التي قضاها علماء الغرب في تطوير وتحديث ذلك المختبر ، فقد أصبحنا كمن يشترى بيتا جاهز البناء ، وشتان بين بيت تبنيه يداك ويتصبب عرقك انهاراً وانت تقف مع بنائيه وعماله ، وبيت تتسلم مفاتيحه وما عليك الا أن تتمتع بما فيه من اثاث وفراش وبالطبع المتعة لاتكون واحدة في الحالين . فحينما نشتري ذلك المختبر لانشتري معه السنوات الماضية لتطويره وتحديثه ، ولو استطعنا شرائها لصح التعبير أننا ننقل حضارة

الغرب ، لكن الواقع أننا نشتري مظهرا حضاريا فقط ، أما الجوهر فليس من نصيبنا لأننا لانريد أن نوجع عقولنا به .

ارى نفسى اطلت في الحديث عن التطفل علي علوم الغرب وتركت موضوعى الأصلى وهو الادب . قلت أن الادب هو مقياس رقي الأمة وتقدمها ، وحين انتكس العرب ، ودامت نكستهم قرونا ، تطفلوا علي علوم الغرب وايضا تطفلوا علي أداب الاجداد السابقين . ولست ضد الأدب القديم ولست ضد ما كتب السابقون . الا أنني اعيب علي انفسنا، أن نعيش عالة علي اجدادنا من الأدباء والمفكرين العرب . فانت اذا زرت اي معرض للكتاب ستجد قسم كتب التراث هو افخم قسم ، ستجد هناك الكتب الكبار وستجدها في مجلدات مجمعة أو مجلدات منفصلة وستجد الحجم الصغير والكبير ، وستجد التنافس بين دور الطبع والنشر علي اشده من أجل تقديم ذلك التراث ، وستجد منافسة في الاسعار تقف معها حائرا اي طبعة تختار ، وتجد نفسك وقد نفذت اموالك في المعرض مضطراً لان تقترض من صديق لك ، وان لم تجد صديقا فستعود إلي البيت لتأخذ ما به من مال باق لتشتري تلك الكتب التراثية الاخاذة ، وفي قسم آخر إلي جوار كتب التراث القديم ستجد قسما لكتب التراث الحديث والتراث الحديث اقصد به نتاج الكتاب العظام الذين رحلوا عنا منذ عشرة الي عشرين سنة فقط . ستجد كتبهم وقد اعيد طبعها بنفس طريقة كتب التراث القديم مع فارق واحد وهو حرمان الورثة الافاضل من حقوق النشر والتوزيع . فقد لايكون للجاحظ أو الطبري ورثة يبحثون عن كتبه وعن حقوق نشره ، ولكن بالتأكيد هناك ورثة يهتمون بكتب العقاد والدكتور محمد حسين هيكل ولن يمتنعوا عن أخذ حقوق النشر والتوزيع اذا ما قدمت اليهم ، فذلك حقهم

وهم أولي به . ولكن دور النشر تلك والتي اصبح يمتلكها رجال لا صلة لهم بكتب الأدب والفكر الا عدد التوزيع فقط ، تحرم أن استطاعت الأحياء من حقهم في النشر والتوزيع .

واذا بحثت في اي معرض للكتاب عما الف كتابنا المعاصرون لوجدت وريقات تنشر هنا وهناك ، لوجدت كتيبات سرق معظمها من كتب اخري لوجدت طباعة فاخرة . وكلمات كتبت باكبر مقاس حتي تغطى أكبر عدد من الصحفات فتباع باعلي سعر ممكن لتحقيق كسبا ممتازا لكل من كاتب عصره وناشر كتبه . وكثيرا ما نجد تلك الكتب من نوعية : مقالات مختارة . مقالات سبق نشرها في الصحف ، محاضرات ، خواطر ، ولايمنع أن تكون تلك الخواطر في السجون الحربية ، أوفي ربوع لبنان قبل تدميره ، وهكذا دو اليك فيقرأ الناس ما دار بخلجات كتابهم ومفكريهم وكأن القارىء قد شبع ثقافة وفكرا واتخم شعرا ونقدا حتي اصبح يبحث عن افكار وخواطر وهو اجس هؤلاء الكتاب المرموقين ، وكان أحري بهؤلاء الكتاب أن يسجلوا خواطرهم الحارة وافكارهم المنيرة وهو اجسهم الشاردة علي شريط كاسيت فسيكون ذلك أكثر انتشارا واعظم فائدة وأقل تكلفة ، وسوف يحقق تلاحما حقيقيا وأكيدا بين القارىء والمؤلف ، وبعدها لن ينسى القارىء المسكين ذلك المؤلف المغوار ، فقد صم ذلك الشريط اذنيه وجعله يتوب إلي الابد عن البحث عن الأدب فيلقى ربه وقد كف اذنيه عن سماع تلك الافكار والهواجس والخواطر .

الا أننا لابد أن نسأل انفسنا : لماذا وصلنا إلي هذا الحضيض الفكري وما الذي انزلنا إلي هذا المستنقع ؟ هل هي الأحوال الاقتصادية ؟ هل هي الظروف والملابسات السياسة في بعض بلادنا ؟ هل هي احوال اجتماعية؟

هل هي المرأة كما يقولون ؟ هل هي نظم التعليم من الابتدائي وحتي الجامعي ؟ وهل هي اسعار الورق وتكلفة الطباعة والنشر ؟ هل هي جشع من بعض الكتاب المرموقين وبخلهم في نشر الثقافة والفكر بين الناس ؟

بعض الاسباب هي اجابات تلك الأسئلة ايجابا ، وبعضها الآخر يحتاج إلي تعقيب من علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجي واعود هنا إلي ما بدأت به حديثي عن نظرة المجتمع الي الولد الذي يميل إلي الشعر وما يصاحب ذلك من وصمه بالمروق أو الشذوذ . فكل اديب اصيل كان ذلك الولد المارق ، وكل كاتب أو مفكر كان ذلك الولد الشاذ ، وعلي ما يبدو فان اهليهم وآسف لهذا التندر لم ينتبهوا إلي ما اصاب ابناءهم ، فلم يرسلوهم إلي مصحات عقلية أو نفسية أو عصبية ، فكان ما بين ايدينا من بعض الكتب الجادة التي تلهمنا الصبر والسلوان علي ما اصاب ادبنا وثقافتنا . وتلك النظرة الشاكة الي الولد الذي يميل إلي الشعر لن تتغير بين عشية وضحاها . ولن يغيرها ساحر ينطق شعوذاته المشهورة . فنحن نحتاج إلي اعادة بناء قيمنا الاجتماعية ، فقد تفسخت تلك القيم وشابها ما يجعلها تتآكل داخليا . اصبحت نظراتنا إلي كثير من الأمور تتسم بعدم المبالاة واللاكتراث وعدم حسبان ما ستأتي به تلك التطلعات السطحية إلي أمور حيوية .

وليبدأ كل من موقعه باذلا جهده وقادحا زناد فكره حتي يساهم في عملية اعادة ما اصاب قيمنا ، فمصيبتنا في عزيز لدينا ، ولتتضافر جهود جهات التعليم والمعارف والأعلام حتى تتمكن جميعها من تقديم شيء جديد يتغير بموجبه المجتمع أخلاقيا ومن ثم تكون هناك بارقة أمل في نهوض ثقافي وحضاري ممكن فقد ساد مجتمعنا روح الاستهتار ، واصبح

من يهز كتفيه انسانا محترما ، يوصف بانه عبقري ، واصبح الناس يصفونه ببرود الاعصاب مع أن الحياء نصف الدين ، ومن يستحي لايكون ابدا بارد الاعصاب واصبح من يخترق القواعد والقوانين رجلا شجاعا وبطلا مغوارا يقتدي به الناس ويقلدونه ، وبذا اصبح مفهوم الحرية أن نخرب وان نهدم كل ما هو ملك لجهاز الدولة ، وامام حرص الدولة علي ممتلكاتها فقد وضعت قوانينا صارمة امام هؤلاء العابثين ولكنهم يمضون قدما في عبثهم ، اصبحت خلاعة النسا وخروجهن إلي الشوارع ومزاحمة الرجال في ارزاقهم من سمات التحرر والتقدم في حين تخرب البيوت وييتم الأطفال مع وجود الأبوين علي قيد الحياة ، واحري بالمرأة أن تنهي تعليمها ثم تقر في بيتها ، فهناك مملكتها الحقيقية وهناك عرشها الذي لاينا فسها فيه أحد ، أما في الشارع فثمة الف زائغ بصره ، وفي العمل ثمة الف بارع ، وفي كل مكان تجتمع فيه للعمل مع الرجل سوف يتفوق عليها ويبزها ، ولن تستطيع الصمود أمام صبره وجلده فهو خلق للصعاب وهي خلقت للبيت وتربية النشيء ولن تبدل المرأة حالا بحال . وما من شك أن أهم اسباب البطالة ، وفائض العمالة هي خروج المرأة الي العمل بجانب الرجل ، فلو حذفنا عدد العاملات ووضعنا بدلا منهن رجالاً ، لعانت كثير من دولنا نقصا في موظيفها ولاصبحت تبحث عمن يمدها بعاملين جدد . هكذا فعلت بنا التقاليد الجديدة ، وهكذا اصبحت المرأة بدل أن تعلم أبنا ءها القراءة والكتابة ، اصبحت تكد وتجتهد للحصول علي دراهم قليلة تضيع في الزينة والازياء باهظة التكاليف ، وعليه فقد أصبح تلاميذ المدارس يعتمدون بالدرجة الأولي علي المدرس الخصوصي وتهدم البيت منذ أن دخله المدرس الخصوصي ، فهو يدخله طامعا في مال أهله ، أو

متغزلا في بناته ، ولا اظن ان هدفه يحيد عن اي من هذين ، وقارىء تاريخ عمالقة الفنون والآداب والعلوم يدرك لأول وهلة أن أم كل واحد منهم هي سبب نجاحه وهي الدافع الأول لنبوغه وتفوقه ، لم تكن امرأة عاملة ، ولم تكن أما تخرج في الصباح الباكر تزاحم الرجل في مكتبه ، لكنها كانت تستيقظ في الصباح الباكر لتوقظ ابناءها لصلاة الفجر في وقتها ولقراءة ، القرآن بعد ذلك تعد لهم طعام الافطار ثم يذهبون إلى مدارسهم وعند عودتهم يجدونها وقد اعدت لهم ما توفر من طعام يأكلونه ثم ينامون قليلا ويستيقظون بعدها لمذاكرة دروسهم بشهية وتفتح ، وهكذا حتي نهاية العام ، وبعدها النجاح والتفوق . ذلك في حالة أم لاتعرف من القراءة والكتابة شيئا . أما اذا كانت أما لديها القليل من التعليم ، فسوف تورف ظلال علمها علي ابنائها وسوف يكونون أكثر نبوغا من ابناء أم لاتعرف القراءة والكتابة . ويكفيني ان اقول أن تناول تلاميذ المدارس للأفطار يساعدهم علي التركيز وحضور البديهة وتقبل الدرس وذلك ما كانت عليه الاجيال السابقة ، أو هو ما تربي عليه كل مفكر أو رجل متميز في يومنا هذا . أما اليوم فيخرج الطفل من بيته شبه نائم ، فقد أرهقه التلفزيون والفيديو حتي سهر إلي الساعات الأولي من فجر اليوم التالي ، ولولا أن أمه أو أبيه ايقظوه لما نهض من السرير . ويذهب إلي الدرس دون افطار ، فأمه قد خرجت لتوها إلي عملها وابوه خارج لتوه يبحث عن لقمة العيش . مساكين هؤلاء الابناء يأتي بهم اباؤهم إلي الحياة ليعذبوهم إلي أن يتخرجوا من الجامعة فينبري من يسميهم « أنصاف اميين » وكأن التعليم في الجامعة لم يُزل الا نصف اميتهم .

إننا بحاجة إلي اصلاح ما فسد من قيمنا ومواريث عادتنا والاسرة هي

أول ما يجب أن نوجه العناية اليها : فتكون الام في بيتها ، ويكون الرجل في عمله ، والاولاد مواظبون علي مدارسهم ، الام تهتم بهم ولهم عند ذهابهم وعند عودتهم والمدرس الخصوصى لايدخل البيت اطلاقا ، فانه رمز لاشياء كثيرة اولها فشل النظام التعليمي العام وثانيها أن في نفسه اهواء شيطانية ، وثالثها وليس آخرها أنه ارهاق لميزانية الاسرة البسيطة والقادرة علي حد سواء . واذا صلحت الاسرة صلح المجتمع ، فلنصلح احوال اسرنا ما استطعنا ، ولنقيم بين افراد العائلة علاقة طالما حلمنا بها سمتها الود والحنان ومد يد العون وقتما دعت الضرورة لذلك .

١٩٨٦/١/١٢م

٢ـ ثقافة أطفالنا

نقف عاجزين أمام المشكلات الثقافية والفكرية التي تواجه اطفالنا ، ونتخبط هنا وهناك باحثين عن حل أمثل لتلك القضايا الاساسية الجوهرية ، الا أن الحلول والاقتراحات المطروحة تكون أكثر تعقيداً ، وتكون نتيجتها - علي المدي الطويل - اغتراب أطفالنا وابتعادهم عن روح مجتمعاتنا العربية الاسلامية المحافظة .

وبادىء ذي بدء ، نقول أن ثقافة الطفل مصابة بعاهة نفسية خطيرة وهي انفصام الشخصية الثقافية العربية المقدمة للطفل ، ومثال علي ذلك أي برنامج تلفزيوني كرتوني يقدم للأطفال حيث ينقسم ذلك البرنامج في كل الدول العربية إلي قسمين القسم الأول يكون أما مترجماً عن نص انجليزي أو فرنسي بلغة فصحى تغلب عليها الركاكة ، أو بلغة فصحى بليغه يصعب علي صغارنا وكبارنا فهمها ،والقسم الثاني يكون من انتاج عربي خالص ، ولكن ، وللأسف الشديد ، يبدو وكأن معد ومقدم ومخرج البرنامج قد تصوروا أن جميع اطفالنا - ما عاذ الله - يعانون من تخلف عقلى ، أو من وجود أمراض خطيرة تؤثر على استيعاب الطفل ومن ثم كانت تلك البرامج المغرقة فى السطحيه وتوافه الأمور ، حتى أن الأطفال يسخرون ويتندرون عليها وينعكس ذلك على تفكيرهم حين يسمون الناس من حولهم بأسماء تلك الدمى التى تتحرك أمامهم فى سذاجة وبلاهة ، فيسمون فلاناً من الناس دبدوب وهبهوب وكلبوب إلى آخر تلك المسميات ، وذلك الربط

---

* نشرت فى جريدة الشرق الأوسط فى حلقتين ، الأولى بالعدد ٢٧٦٩ بتاريخ ١٩٨٦/٦/٢٨ م والثانيه بالعدد ٢٧٧٠ بتاريخ ١٩٨٦/٦/٢٩م .

بين أسماء الدمى التى تظهر فى فيلم الكرتون العربى ، والأشخاص العاديين ، أنما يصور مدى احتقار الطفل لما يقدم له ، أو على أقل القليل استخفافه به ، حتى أنه ليسقطه على أشخاص يريد الاستهزاء بهم أو التقليل من شأنهم ، وعلى النقيض فإن الطفل نفسه يتصرف تصرفات ويقدم على حركات اذا حللت عن قرب كان مرجعها فيلماً كرتونيا غربياً خالصاً أى قدم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، أو أن الطفل أهمل الترجمة وتابع الصورة فهى وحدها تكفى ، فالطفل لديه من الذكاء الطبيعي ما يؤهله لفهم مايدور أمام عينيه .

نجد الطفل يقلد ما يدور في الفيلم الاجنبى ، وهو في ذات الوقت يستخف بما يدو في الفيلم العربي ، الفيلم الأول يقدم شيئاً جاداً يخاطب عقله ، وينمي ملكاته الخلاقة ، أما الثاني ، فينزل به إلي أسفل ويشده إلي عالم المتخلفين عقلياً بل والمعتوهين أحياناً ، الفيلم الاجنبى يراعي فروق الذكاء ، والفروق الفردية والعمر التعليمى للأطفال ، فإذا تصورنا أن سن الطفولة يستمر حتي العاشرة علي أقل تقدير لكان هناك ستة أجيال من الأطفال ينبغي أن تقدم لهم ستة مواد ثقافية مختلفة حسب عمرهم التعليمي الذي قضوه في المدرسة أو الحضانة والفيلم الاجنبى يفي بكل تلك الاغراض تقريباً في جزء بسيط منه . أما الفيلم العربي فانه يقدم مادة ثقافية ضحلة لاتصلح الا لطفل لم يتجاوز الرابعة ، وأما بقية الأطفال بعد الرابعة فعليهم ، رغم أنوفهم أن يتصلبوا أمام الشاشة الفضية لتجرع ما يقدم اليهم من مواد هم في غني عن مشاهدتها لأنها أقل بكثير من استيعابهم وتفكيرهم الذي نضج بحيث أصبح بحاجة إلي ثقافة أكثر جدية وأعلي مستوي .

ومما يحزن فعلاً أن مقدم البرنامج العربي يظهر وكأنه يعالج مرضى نفسيين فتغلب مشاعر الرقة علي حركات المقدم رجلاً كان أو أمرأة ، ولجد فيض الحنان المتصنع والعطف الزائف في صوته أما الفيلم الاجنبى فأنك قد لاتري مقدمه علي الاطلاق ، ولاتسمع الا صوتا خلف الصورة ، فماذا يفيد الطفل أن يري مقدم البرنامج وقد أخذ شكل بهلوان ، أو مقدمة البرنامج وقد تزينت وكأنها تظهر في مشهد تمثيلى يستدعي اعداداً من ذلك النوع الذي ظهرت به أمام الأطفال . ويفطن اطفالنا إلي تلك الحقيقة عندما يرون نفس مقدم البرنامج ، أو مقدمة البرنامج وهو يقرأ مادة اخبارية ، أو يشاهده في تقديم برنامج آخر للكبار ، وهنا تقع المشكلة الكبرى ، حيث يبدأ أطفالنا في المقارنة بين سلوك ذلك المقدم فى برنامج الأطفال وسلوكه وهو يقدم برنامجاً للكبار ، وبذا نظلم اطفالنا دون وعي منا ، حيث يصابون بعقدة نقص خطيرة وهي أنهم أقل شأناً من الكبار ، وبالطبع هم صغار وهم أقل شأناً ومكانة من الكبار ، ولكن الطفل لايفهم الامور هكذا وعليك أن تلاحظ طفلاً عمره أربع سنوات وهو يداعب أخاه ، أو أخته ، حديثي الولادة ، ستراه يعامل أياً منهما بتعال وكبر ، ويعطيك انطباعاً أنه كبير مثلك تماماً ، وان ذلك الأخ أو تلك الأخت ما يزالا صغيرين ، وهو يشاركك الاهتمام بهما ورعايتهما ، واذا تعمق ذلك الشعور بالنقص في نفس الاطفال فإن انعكاسات ذلك الشعور تكون مدمرة كأن يلجأ أحدهم إلي التدخين مقلداً الكبار كأن يضرب أخواته مقلداً الأب أو الأم في المعاملة العنيفة لهن ، كأن يخرج من البيت ويتأذي اذا سئل عن الوجهة التي ينشدها .

فوضى المواد الثقافية المقدمة إلي الأطفال عبر التلفزيون نتج عنها طفل يعاني من شخصية ذات ثقافة منفصمة ونحن مسئولون مسئولية مباشرة عن ذلك النوع من الخطأ الذي ارتكبناه دون وعي منا .

وعلي من يخالفني الرأى في ذلك أن يسأل أقرب طفل حوله : ماذا تريد أن تري في التلفزيون أو الفيديو من أفلام الصغار ؟ وأنا علي ثقة أن الإجابة ستكون فيلما أجنبياً خالصاً غير مترجم ، أو فيلماً أجنبياً مترجماً يعتمد في فهمه علي الصورة والموسيقى وليس علي اللغة العربية .

وعلي الرغم من شدة الخطر الناجم عن ذلك الشرخ في البناء الثقافي لأطفالنا الا أن الأمر يمكن علاجه وذلك بالنصح والارشاد الموجه من قبل الأبوين أو الأخوة الكبار ، لكن ، الشخصية الثقافية الفصامية تجد دعماً ومساندة منا عندما نصر نحن الآباء علي أرسال ابنائنا إلي مدارس خاصة وما أظن أن ثمة ميزة - في الوقت الحالي - في المدارس الخاصة غير أنها تقدم قشوراً من اللغة الانجليزية أو الفرنسية ، أو أي لغة أجنبية أخري ، ويتشدق الآباء في مجالسهم عن التعليم الخاص ، وأن ابناءهم يحصلون علي أكبر قدر ممكن من الثقافة نتيجة ذهابهم إلي تلك المدارس غير منتبهين إلي أنهم يشاركون في نخر أعمدة البناء الثقافي العربي لدي هؤلاء الابناء ، في سرعة وثبات لامثيل لهما .

وقد شاءت ظروفي التعليمية أن اتلقي تعليمي الجامعي مع طلبة وطالبات تخرجوا من المدارس الخاصة العريقة في مصر والتي انفق فيها الآباء الغالي والرخيص حتي يصل ذلك الابن أو تلك البنت إلي الجامعة ، وتحقق الهدف ودخلوا الجامعات وجلست إلي جوارهم وأنا الطالب الذي تلقي كل تعليمه في مدارس حكومية رسمية ، وأذكر ، وهذا ثابت في سجلات

الجامعة ، أن معدل الرسوب والتخلف بين طلاب المدارس الأجنبية والخاصة كان مرتفعاً ، مع أن دراستنا كانت هي اللغة الانجليزية وآدابها أساسا ، مع بعض من اللغة العربية واللغة الفرنسية ، وكانت مواد الرسوب هي النثر ، والمسرح والشعر ، واللغة العربية ، وذلك ما يثير الدهشه .

فالقصص التي ندرسها تحت اسم مادة النثر ،كانوا قد درسوها في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ، ولكن بشكل مبسط ، وكذلك الحال في المسرحيات التي تدرس تحت اسم مادة المسرح والتي فيها معظم مسرحيات شكسبير ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالشعر الذي درسوا معظمه وحفظوه إبان الدراسة في المراحل المختلفة للمدارس الخاصة ، أما اللغة العربية فكان الرسوب فيها راجعاً إلي عدم قدرة هؤلاء الطلاب علي فهم النصوص المكتوبة ، فقد بعدت بهم الشقة عن اللغة العربية فصعب فهمها وبالتالي كرهوها ، وأصبحت مصدر ازعاج وأرق لهم ، وكان فرع التعبير والانشاء في تلك المادة أكثر ما يزعجهم ويؤرقهم ، وإلي جانب مواد الرسوب تلك كانت تضاف مادة الترجمة إلي العربية ، فهم وخصوصاً الطالبات ، يفهمون النص الانجليزي جيداً ، وتستطيع الواحدة منهن أن تشرح لك كل ما في النص بلغة عربية عامية تغلب عليها الالفاظ الاجنبية ، أما اذا أرادت أن تكتب عربية فصحى وهي المعتمدة في الامتحانات ، فانك تري عجباً عجاباً ، لا أبالغ اذ أقول أن ما يكتبونه في تلك الترجمة عامي محض وأيضاً ، لا أبالغ فأقول أن هذا هو حال جميع الطلبة الذين أتوا من مدارس أجنبية أو خاصة فثمة الصالح منهم .

قدمت هذا المثال من واقع حياتي الدراسية كي يكون دليلاً علي ما أقـول ، وربمـا كان ذلك المثـال واحداً من الأمثلة التي تغص بها منشآتنا

التعليمية ، والخلاصة هي أن البيئة عربية مسلمة مئة بالمئة ، ولكن الثقافة التي تلقاها الطالب منذ كان طفلاً حتي أصبح شاباً يافعاً ، وهي ثقافة غربية بحق ، فتلك المدارس علمته عادات وتقاليداً لاتصلح الا للغرب ، وبيئته وطبعه ، والطفل في المدارس الخاصة تلك لايسمى معلمه السيد حسن مثلاً ، ولكن يسميه « مستر حسن » وفي البيت يسقط كلمتي الأم والأب العربيتين ليحل محلهما مامى وبابى - مع باء عميقة - وكذلك «أنكل» بدلاً من عمي أو خالي ، ولست أعول علي هذه الكلمات فقط ، وإنما آخذ منها الكثير ، فهي تشير إلي استحياء دفين من استخدام لغتنا العربية البسيطة والواضحة في اطلاق المسميات علي الأشياء وينسحب ذلك النوع من الاستحياء الذي هو جزء مكمل للشخصية الفصامية ، ينسحب علي مسميات أشياء أخري في حياتنا العامة ، في الأكل واللبس والشراب والمسكن ووسائل الانتقال والترفيه وإلي كل ما يمكن استبدال مسماه العربي بمسمى آخر اجنبى .

أننا نبيع ثقافتنا العربية الإسلامية بشيىء رخيص عندما نفرح لأن يتعلم أولادنا الابجدية الانجليزية أو الفرنسية وبعض الكلمات الأساسية في أحدي اللغتين .

ولقد اعجبنى كثيراً النمط التعليمي في دولة الامارات العربية المتحدة ، فالطلاب هناك يدرسون اللغة الانجليزية من المرحلة الرابعة الابتدائية وهذا أمر مستحسن ومن الناحية التربوية والتعليمية فهو صائب وموفق . فالطالب في الصف الرابع الابتدائى - أي الذي متوسط عمره تسع سنوات - يكون في شهقية دائمة للتعلم والاستزادة من المعرفة ، وأذكر أنني قمت بالتدريس في الصف الرابع الابتدائى فكان أن حفظ التلاميذ أربعة عشر

نشيداً في مدة لاتتجاوز الشهرين مع فهم وهجاء كلمات تلك الاناشيد ، وبما يثير الأعجاب في النظام التعليمي هذا ، هو أن مدرسي اللغة الانجليزية واللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والثقافة الإسلامية يتعاقبون في اعطاء دروسهم دون تمييز بين مادة وأخري ، فكل المواد اساسية ، وكل المواد مطلوب النجاح فيها للنقل إلي مرحلة تالية ، وما أظن المدارس الخاصة تقدم برامج جادة ومتنوعة مثل تلك التي تقدمها مدارس وزارة التربية والتعليم بالامارات .

وإذا أردنا صلاحاً لابنائنا - فلذات اكبادنا تمشي علي الأرض - فينبغي أن نتجه إلي أخطر وسيلة اعلام ، التلفزيون ، وملؤنا الأمل في التغيير ، ولنضع برامج جادة ومفيدة ، يشترك في وضعها اساتذة علم النفس والاجتماع إلي جانب رجال التعليم والفكر ، وأن تكون تلك البرامج باللغة العربية الفصحى ، وأن تقدم سهلة مشوقة كما ينبغي أن يقدم تلك البرامج مذيعون يجيدون استخدام اللغة العربية الفصحى ويمنع نهائياً استخدام اللهجات العامية القاتلة . كما وأن تشدد الحكومات وأجهزة الاعلام الرقابة علي مصنفات الأطفال من أفلام فيديو وسينما ، واذا قدمت أفلاما اجنبية فيختار الجاد المثمر منها ، لأن اشد السم قتلاً يوضع في أحلى العسل . وكذلك ينبغي أن نعيد النظر في وضع المدارس الخاصة فتكون الرقابة أكثر مما هي عليه الآن من حيث الاشراف علي البرامج ونظم التدريس وكذلك استطلاع ملفات المدرسين ومعرفة المؤهلين منهم من غير المؤهلين ، وكذلك مراقبة مباني المدارس الخاصة وتأثيثها وأن تخضع كل هيئة المدرسة لرقابة وتفتيش مستمرين من قبل الهيئات التعليمية وكذلك

أن تفرض مادة الثقافة الإسلامية وعلوم القرآن الكريم كمواد أساسية وأن يختار للعمل في تدريس تلك المواد مدرسون تختارهم وزارات المعارف أو التربية والتعليم بالبلاد العربية .

وأخيراً وليس آخراً أن نعمق في نفوس أطفالنا روح الانتماء إلي العرق العربي وروح الانتماء إلي الأمة الإسلامية الكبري ، لماذا يخجل بعض المثقفين العرب من تاريخنا العربي ؟ لماذا يتأذي مثقفونا من ذكر سيرة العلماء المسلمين الأوائل ؟ لماذا يضجر بعض مثقفينا من دروس تعليم القرآن للصغار ؟ . أن تاريخنا العربي القديم مليىء بصفحات الفخر ولذا يجب اعادة تقديمه إلي ابنائنا الصغار في أزهي صورة دون مبالغة أو تزوير حتي يتسنى لهم تخطيط مستقبلهم وثقافتهم ، فأمة بلا ماض ستكون أمة بلا مستقبل وستعيش حاضراً تعيساً مريراً . لاينبغى أن يكون تقديم الماضى لمجرد التفاخر بأنسابنا فقط ، ولكن ينبغي أن يكون حافزاً للوثوب إلي الامام ، للقفز عبر السنوات العجاف التي نعيش حتي نستعيد بعضاً مما فات . وان كان لايرضى طمعنا عودة كل الماضي العربي المتألق حضارة علمية وثقافية وفنية ، فأن القليل منه يكفي .

١٩٨٦/١/٢٢م

٣- الكاتب والمجتمع «١»

اذا أمسك كاتب بقلم وكتب شيئاً فانما ينظر إلي هدفين اثنين ، أولهما اشباع لرغبة في نفسه وهي الكتابة ، والثاني هو ابراز فكرة معينة طرأت له . وهو يطرحها في شكل قابل للقراءة حتي تجد سبيلها إلي نفوس جمهور القراء الذين يفترض فيهم المشاركة أما ايجاباً أو سلباً . أى أنهم أما يقبلون تلك الفكرة أو أنهم يرفضونها ، وبين القبول والرفض تتحدد شعبية ذلك الكاتب ، وتتحدد من خلالها السمعة الأدبية لذلك الكاتب . والكاتب ، موضوع حديثنا هنا ، أما أن يكون قصاصاً أو كاتب مسرح ، أو شاعراً أو صحفياً ، أو مؤرخاً ، أو ناقداً .

وأول أهداف الكاتب ، اشباع رغبة في نفسه ، ليس لنا عليه تعليق قليل أو كثير فكل انسان يستطيع أن يكتب ، ويستطيع أن يعبر عما بنفسه من احاسيس وخلجات ولكن مايهمنا هو الهدف الثاني وهو أن يبرز الكاتب فكرة معينة طرأت له .

تلك الفكرة تتخذ قوالباً كثيرة متعددة ولا تبقي مجرد خاطرة مرت بنفس الكاتب ، عليه أن يبلورها ، ويدافع عن جوانبها ان صحت ، وعن مصداقيتها أن صدقت . لن يكون موفقاً اذا لم يجند أدواته ومعداته المختلفة في حواره مع القارىء أو المستمع أو المشاهد . فالكاتب الناجح هو كاتب مقنع ، يقدم افكاره ويقدم معها قدراً كافياً من الحجة والبديهة ، وألا هز القارىء كتفيه وأماط المستمع شفتيه ، وأدار المشاهد عينيه ،

وفي كل ذلك فإن جمهوره يظهر عدم موافقته وعدم قبوله لما يقدم له وهو يظهر عدم مصداقية العمل الذي أمامه .

وكتابة القصة طويلة أو قصيرة كانت ، واحدة من افراد الاسرة الأدبية العربية التي يراد لها دائماً التوفيق والرقي ، وعليها مسئولية كبيرة كما علي بقية افراد الاسرة ، في السمو بمجتمعنا والارتفاع به . كاتب القصة لابد أن يكون انساناً ملتزماً بقضاياً مجتمعه، والا فأنه متهم بتهمتين كبيرتين لاغفران لهما ، التهمة الأولي هي تزييف خلفية وواقع القصة التي قدمها ، والتهمة الثانية هي التخلي عن قضايا مجتمعه وانسحابه الانهزامي من ساحة كان من المفروض تواجده فيها ، وتزييف خلفية المجتمع وواقعه في الأعمال القصصيه قضية قديمة ولكنها موجودة معنا اليوم وفي عديد من القصص التي تظهرها المطابع أو شاشات التلفزيون أو السينما ، فقد كان توماس هاردي (١٨٤٠ - ١٩٢٨) من الأوائل الذين أقدموا عليها في قصته تس ديربرفيل (١٨٩١) حيث تحدث عن مجتمع لم يعشه ، ووصف اشخاصاً لم يعاشرهم ، ومن ثم جلب علي نفسه النقد والاتهام بالكفر .

وما من وسيلة لتجنب الوقوع في هذا الخطأ الا أن يعايش كاتب القصة المجتمع ويحتك به ، ويتفاعل معه . فقبل أن يكتب كلمة واحدة عليه أن يسطر خطوط قصته وعليه أن يسأل نفسه : هل أبطال القصة من مجتمعي ؟ هل شخصيات القصة الآخرين من مجتمعي ؟ هل موضوعات هذه القصة من واقع مجتمعي ؟ وبعدها يبدأ في نسج قصته علي خيوط هي الواقع والحقيقة . لا الخيال والزيف .

والقصص التي تظهر الآن لاتعبر عن المجتمع كثيراً ، هي دخان سيجار ذلك الكاتب أو عبق عطور تلك الكاتبة التي تجلس في مقعد وثير لتجرب حظها مع القصة فأين مجتمعنا وقضاياه من قصص تتحدث عن راقصة وطبال ، أو عالم وعالمه ، أو قصة تتحدث عن الباطنية وحمام الملاطيلى ، أو قصة تتحدث عن مغامرات شاب في باريس أو في لندن ، ما نريده هو قصة تصور قطاعاً من المجتمع : قاع المجتمع وسط المجتمع ، قمة المجتمع ، نريد قصصاً كتلك التي كتبها نجيب محفوظ في زقاق المدق حيث قدم لنا شخصية مغرقة في الواقعية مثل شخصية زيطه ونريد قصصاً مثل الكرنك حيث اصطدم فيها نجيب محفوظ بقمة المجتمع وشخصياته المسئولة وأعلي سلطة فيه ، رئيس الدولة ، نريد كاتب قصة يتحدث عن مجتمع القادرين وماذا يفعلون ، أن خيراً فخيراً يكتب ، وأن شراً فشراً يكتب .

والقصة العربية شكل تعبيري من اشكال الكتابة الفنية عليها أن تلتزم بالواقع العربي المعاصر أن كانت تتحدث عنه ، أو أن تلتزم بوقائع التاريخ أن كانت تؤرخ لماضينا ، ولا دخل للأهواء الشخصية عند كتابة التاريخ ، أننا نأخذ علي كاتب تزييفه للتاريخ لأن ثمة جيلاً من الشباب سيتبعون زيفه ويصدقونه ، وعليه فقد ترك ذلك الكاتب جيلاً من المزيفين بعده يعتقدون ما أعتقد ويصدقون ما صدق ، الا أن هوس أرباح السينما وأرباح توزيع افلام الفيديو قد أصاب اقلام كتاب القصة العربية ، فجعلها تخر راكعة أمام بريق الدولار والاسترليني وجعل كتاب القصة العربية نجوماً سينمائيين يحركهم المخرج والمنتج ، وغاب المجتمع وغاب افراده وأنطمست قضاياه ، وظهرت قضايا أخري تشبع رغبة في نفس المنتج

والمخرج الذي غالباً ما يكون بعيداً عن واقعنا العربي وقضاياه المؤلمة .

حتي وان انتج ذلك المنتج والمخرج فيلماً عن حرب فلسطين أو لبنان فأن هدفه التوزيع والانتشار وتحقيق الربح وليس كسب أراء مؤيدة ، وليس جمع تبرعات لشعوب تموت جوعاً وتموت طغيانا ً وتموت اهمالاً لعدم وجود الرعاية الصحية في المستشفيات ، وأنا في حل من ذكر افلام معينة وقصص معينة ، لأن الرد لن يكون بنقد أو مقالة ، ولكنه سيكون أمام محاكم الأمور المستعجلة وسوف أخسر أمامهم وسأطالب بدفع الكثير من المال وأنا رجل فقير لا أملك الا قلمي فقط .

واذا قارنا حجم القصة العربية المعاصرة بالقصة الأمريكية والانجليزية المعاصرتين وجدنا أن حجم القصة العربية ضئيل وان حجم القصة الانجليزية أو الأمريكية كبير . وهذه الضآلة في حجم القصة العربية تتزايد اذا نظرنا إلي مقاس الحروف المطبوعة بها ، فمقاس الحروف في القصة العربية ضخم كبير ، أما مقاس الحرف المطبوع في القصة الأمريكية يكون متوسط كلمات السطر الواحد إحدى عشر كلمة . وكانت القصة العربية المعاصر أو الانجليزية فهو دقيق صغير ، وقد يصل الأمر إلي كتابة خمس كلمات في سطر القصة العربية بينما في القصة الأمريكية مغرق في الايجاز الوصفي لاحداث قصته ، وكأنه يحيلها إلي مخرج سينمائى سوف يتعهد بكاميراته وحركات وتحركات ممثليه بملء هذا الفراغ في الوصف الفني الذي عجز قلم الكاتب عن انجازه .

إن القصة العربية قادرة علي التأثير والافادة وهي قادرة علي معالجة عديد من مشاكل مجتمعنا المزمنة ، ولكن المطلوب أساساً هو وعي لدي

كاتب القصة ، فكاتب القصة يجب أن يكون ذا خلق حميد ، وذا علم وفير ، وذا ثقافة خصبة ، وذا سمعة طيبة . وكيف نقبل أن يكون كاتب قصة من عاش في وسط الرذيلة والعار ؟ وكيف نقبل أن يكون كاتب قصة من أدمن الحشيش والأفيون وغيرهما من المخدرات ؟ وكيف نقبل أن يكون كاتب قصة من عشق أم الخبائث ، الخمور بأنواعها ؟ وكيف نقبل أن يكون كاتب قصة عربية من تباهي بالعادات الغربية وأحبها وسخر من عاداتنا وتقاليدنا وديننا السمح الكريم ؟ كيف نقبل أن يكون كاتب القصة العربية شيوعياً فاقع الحمرة ؟ أو ماركسياً يتخفى تحت أقنعة التقدم الفكري وما إلي غيره من أقنعه سرعان مايكشفها القارىء البسيط ؟ كاتب القصة العربية رجل مسلم يتسلح بدينه أولاً ، وبعلوم أهل وطنه ثانياً ، وبثقافة الخير ثالثاً وثقافة الخير التي نقصدها هي الثقافة التي تفيد ، لا الثقافة التي تقرأ ويدفع من أجلها الكثير ثم لايستفيد منها الا صاحبها ، أو أنها قد لاتفيده شيئاً علي الاطلاق بعد ذلك يمسك كاتب القصة بقلمه ويشرعه في صدور الفاسدين في المجتمع ، ليسقطهم في سطور قصته ويبدأ في طعنهم بخناجر الحق المشرعة ، وبسيوف الفضيلة التي خرجت لتوها من غمدها وفي ذلك يلجأ إلي اللغة العربية الخصبة ومفرداتها التي خرجت لاتضن علي طالبها بشيء ، وان يكون خياله سلاحاً رابعاً في كل مكان ، وان يكون ذوقه سلاحاً خامساً ، وان تكون ملكة اختيار الاسماء سلاحاً سادساً ، فلا يختار الا اسماء لها مدلولات معينة ، وأن يكون اسم الشخصية متفقاً مع سلوكها في جنبات القصة ، وأن تكون ملكة الوصف الدقيق والمفصل سلاحاً سابعاً ، وان تكون قوة الملاحظة وسرعة البديهة سلاحاً ثامناً ، كما

ينبغي أن تكون الرؤيا الواضحة وكذلك الوصول الي النتيجة المقصودة سلاحاً تاسعاً . ولانريد قصة بدون هدف ، ولانريد أن نطرح سؤالاً في نهاية القصة مفاده : ماذا يريد الكاتب أن يقول ؟ وبعد ذلك نحن لسنا ضد تحول القصة العربية - من ذلك النوع وبتلك المواصفات - إلي شاشة السينما أو التلفزيون ، فلقد سعدت بعملين سينمائيين وهما فيلماً الرسالة و عمر المختار ففي الأول قصة الاسلام وقد قدمت في تشويق واثارة بالغي الاثر ، وفي الثاني قصة شعب ناضل حتي انتصر ، وأنا علي يقين أن مايستفيده الناشئة من فيلم « الرسالة » يعادل ما يتلقوه في الدروس التعليمية سنوات طويلة ، وكذا مايتعلمه الطلاب عن تاريخ ليبيا - صادقاً وموافقاً للواقع - في سنين طويلة ، سيتعلمونه في ساعتين أو ثلاث مع شوق ومتعة ومصداقية واقناع لاحد لهم .

واذا كان كاتب القصة العربية يتخذ من واقعنا ومجتمعنا موضوعاً لقضاياه ، فإن كاتب المسرح العربي يجب أن يشاركه نفس الهدف والغاية عند الكتابة للمسرح . ولقد تسيد مسرحنا العربي المعاصر نمط واحد من الكتابة المسرحية الا وهو النمط الاضحاكي الهزلي ، فثمة مسرح إضحاكي لكنه مفيد ، ولكن مسرحنا الضاحك هزلي فقط ، هو رياضة لتدريب الرئتين علي الحركة السريعة أثناء القهقهة ، وهو تدريب شاق للقلب علي الخفقان السريع اثناء الشهيق والزفير اللازمين للقهقهة وهو تعميق لاحتقار أنفسنا كشعب عربي عندما نري اخطاءنا أمامنا نضحك عليها بصوت عال ، بدل أن نبكي علي أنفسنا حزناً علي ما وصلنا اليه .

واذا قرأ القاريء مسرحية من مسرحيات شكسبير الاضحاكية بكي ،

وهذا ليس بغريب فمسرح الاضحاك في مواقف كثيرة منه يبكي ، حتي أن شخصية البهلوان التي يبرع شكسبير في تقديمها تدعو إلي ذرف الدموع ، أما في مسرحية الاضحاك العربية فأن كل شيء يضحك . فقد اتفق الجميع علي أن هذه المسرحية دعوة للضحك فقط ، وكما قلنا فهى تدريب للقلب والرئتين ومن ثم فليس غريباً أن وضع أمام أحد المسارح يوماً ما لافتة تقول : لا يسمح بدخول مرضى القلب إلي هذه المسرحية بالطبع لأن ذلك المشاهد المسكين قد يفشل قلبه أو رئتاه أثناء الضحك ولن يجد من يسعفه في تلك الساعات المتأخرة من الليل نعرض تلك التفاهات المخزية ، التي لايستحي بعض مؤلفينا من وضعها علي مؤخرة قرد أو كلب أو ماعز أو حتي علي ظهر حمار ممتهنين حتي قيمة الحيوان ومتندرين علي ما خلق الله سبحانه وتعالي . فالحيوان له قيمة غير التندر به علي خشبة المسرح ، وله وظيفة غير الاتيان به في الساعات المتأخرة من الليل وساعات الفجر الأولي ليلهو به ممثل مارق ، أو مخرج فاسق أو مؤلف لايتقي الله ، ولايرعي ما يمليه عليه ضمير الأمة واخلاقيات المجتمع .

ومع علم الجميع أن ما يقدم في تلك المسرحيات الهزلية لن يفيد في شيء الا أنك تجد الطوابير تصطف أمام تلك المسارح التي دفع مرتادوها مبالغ خيالية من النقود في سبيل الحصول علي مقعد أمامي حتي يكون قريباً من سخافات الممثل وحتي يكون أول من يسمع السباب والشتائم وهي تخرج طازجة من فم ذلك الانسان الذي فقد قيمته كانسان وأساء إلي مجتمعه وخرج عن ناموسه الرفيع ، ومما يدعو إلي الانتباه أن مرتادي ذلك النوع من المسرحيات الهزلية هم الصفوة القادرة مادياً ، أغنياء المجتمع ،

ومما يدعو إلي الانتباه ثانياً أن معظم مرتادي هذه المسرحيات إلي كونهم أغنياء المجتمع ، فهم غير متعلمين ، أو اذا كانوا متعلمين فقد نسوا تلك الحقيقة والقوا بتعليمهم خلف أسوار النسيان حتي تنتهي تلك المسخة التي تعرض أمامهم ، فقد انقلبت قيم المجتمع العربي رأساً علي عقب وأصبح المال هو سيد الموقف ومن ثم فإن صاحب ذلك المال هو القادر فقط دون غيره علي تحقيق ما يطلب - وطلب صاحب المال الذي غالباً مايكون جاهلاً أو نصف أمي هو أن يرضى رغبات متدنية ، وأن يشبع نزوات رخيصة يجد في المسرح الهزلي مجالاً سانحاً لتحقيقها . وايضا فإن من يقدمون تلك المسرحيات يجدون أنه من الأفضل انتقاء أسماء عامية سوقية مغرقة في التقرب إلي تلك النوعية من مرتادي مسارحهم الرخيصة .

ولكن المسرح العربي ينبغي أن يكون مسرحاً جاداً ، يقدم إلي جانب الفكاهة والضحكة المثمرة ، تاريخاً وسياسة وفكراً وبطبيعة الحال فانه مطلوب فيمن يقدم علي هذه الكتابة الجادة أن يكون مثقفاً ثقافة عميقة في التاريخ العربي والادب العربي والفكر العربي بوجه عام . وان يعرف الكثير عن ثقافة الأمة الإسلامية ، حتي وان لم يكن مسلماً ، فثقافة العرب مسلمة أصلاً . وعلي أجهزة الرقابة الفنية أن تسقط من حساباتها تلك المسرحيات ومؤلفيها الذين لايقدمون افكاراً جادة وأعمالاً اصيلة .

الدعوة إلي تجديد المسرح العربي نعتمد فيها علي الافراد : جمهور المشاهدين وجمهور المؤلفين ، وجمهور المخرجين والممثلين والمنتجين ، ثم بعد ذلك هي دعوة إلي الحكومات العربية والسلطات المسئولة أن تنتبه وان تفيق بعض تلك الاجهزة من غفلتها . فإن مسرح الاضحاك ومسارح اللهو

الفارغ أخطر بكثير من الهيروين والحشيش والأفيون . واذا كان مفعول الحشيش والافيون يخصان متعاطيهما فقط ، فأن تأثير المسرح اللاهي العابث سيتناول شعباً بأكمله وأمة بأسرها . سيأتي ذلك اللهو وذلك العبث علي مقدرة وافكار وأحلام وهمم ومحاسن الأمة فيدمرها دون رحمة ودون سؤال عن أيها نافع وأيها ضار . واذا كان الحشيش والأفيون والهيروين يتناولهم الموبوءون في الخفاء ، فإن المسرحيات اللاهية العابثة تعرض علي شاشات التلفزيون الحكومية ، ولا تمانع أجهزة الرقابة في تمريرها وبيعها علي مستوي كبير مع حماية حقوق مؤلفيها في الطبع والتوزيع والاقتباس. ان المسرح العربي اليوم في محنة ، لكن اعداء الأمة الإسلامية سعداء ، كما أن اعداء الشعب العربي منتشون بذلك المخدر الذي جعلنا نبيت في ثبات عميق .

وهم واثقون أن الصحوة قد تطول ، فقد تقسمت الدول وتناحرت ، وتشتت الشعب العربي وتحاربت الدول الاسلامية ، وأصبح كل شيء اثراً بعد عين ، ولم تهدأ بعد نار حقدهم ، ولم يئن بعد لبركان غيرتهم أن يخمد ، فهم لنا بالمرصاد ، فهل نفيق ؟

أما الحديث عن الشعر فهو حديث ذو شجون ، فالشعر لدينا أصبح غير ماكان عليه حاله لدي العرب الأول ، والشعراء اليوم هواة ، ويريدون لأهوائهم الطائشة أن تؤصل قواعدها ، ويريدون - كل حسبما يري - أن يضعوا قوالب جديدة لكتاباتهم متحججين مرة بعدم مناسبة القافية العربية الأصيلة لاذواقهم الرفيعة ، فابتكروا ذلك الشعر الذي نراه اليوم ، وتمادوا فابتكروا القصيدة النثرية ، وتبجحوا أكثر فوضعوا كلمة في كل سطر

وأسموه شعراً متطوراً بعد ذلك . وهاموا علي وجوههم مقلدين تقليداً أعمي المدارس الفرنسية والانجليزية والامريكية ، فمن الرومانسية إلي الرمزية إلي السرياليه إلي الواقعية إلي التخيلية إلي غير ذلك من المدارس التي كان لظهورها في أوروبا وأمريكا ما يبرره .

أما ظهورها في عالمنا العربي فليس له إلا مبرر واحد وهو أنها أتت بطريق الخطأ مع الملابس والعطور والأجهزة الكهربائية والطعام الذي نستورده من الخارج .

فأصبح ذلك الشعر نشازاً في بيئتنا التي لها طبيعتها ولها أجواؤها ومشاكلها فمواضيع ذلك الشعر الحديث كما يسمونه تخص أمة مثقفة لا أمية فيها ، لكن شعبنا العربي تصل نسبة الأمية فيه إلي الثمانين بالمئة ، وتلك المواضيع تتحدث عن الترف والبذخ والرفاهية ، أما شعوبنا فما تزال تعاني وتكابد ، ويخرج رب البيت في الصباح الباكر ويعود منهكاً في المساء حتي يحصل علي لقمة عيش له ولابنائه . وتهجر الأوطان وتقطع الأرحام ، وتنفصم عري القرابة والمودة من أجل حياة كريمة ومواضيع ذلك الشعر تتحدث بعد ذلك عن حب رخيص ويتغزل في العيون ويتغزل في القد المشوق ويتحدث عن رنين صوت الحبيبة . ولاعجب أن تجد ذلك الغزل إلي جوار خبر عن مذبحة ارتكبتها اسرائيل هنا أو هناك ضد شعب عربي مسالم . وذلك ليس عيباً في الإخراج الصحفي لتلك الجريدة أو المجلة ، ولكنه يتم عن عدم مبالاة لدي الصحيفة فقصيدة غزل إلي جوار مذبحة . كان الشعراء في الماضي زعماء القبائل ، وكان تقييم ابطال القبيلة وفرسانها يخضع لما يصدره الشاعر من مدح أو هجاء . وكانت قصيدة

الشاعر تغير وتوءثر فى أمة بأكملها ، أما اليوم فالشعر يقرأ في السرير واذا كان نقداً لاذعاً ضحكنا منه دون استحياء من المسخ اللغوي الذي أمامنا.

فأصبح مألوفاً في شعرنا الحديث أن يتحدث ذلك الشاعر الحديث عن الأعضاء الجنسية ويتحدث عن الأخراج والبول والفضلات الآدمية ، دون حياء أو استحياء . وأفردت الصفحات للشعراء المارقين الذين تتطاول السنتهم معوضين ما أصيبوا به من تقزم خلقي ، حتي أن الجامعات أصبحت تناقش قصائدهم وتخصص لها الندوات والاطروحات العلمية . وكل ذلك ناجم عن الفوضى الثقافية التي انغمسنا فيها إلي الأذقان واصبحنا لانفرق بين شاعر يتحدث عن كلب أو قطة أو تجربة غرامية قذرة ، وشاعر يتحدث عن شحذ الهمم ووصف المعارك ، ويمجد الشهداء الذين سقطوا . وكما أصبح مسرحنا اضحاكاً تافهاً لاقيمة له ، أصبح شعرنا العربى غزلاً فقط في العيون وتغزلاً في القدود ، واختلاس نظرات إلي نهود السيدات . واصبح لدينا شعراء متخصصون في وصف دقائق جسد المرأة وكل حسب خبرته مع النساء في الحرام والخفاء . وما كان لهؤلاء المتشعرين أن يجدوا مكانهم علي خريطة ثقافتنا المعاصرة لولا استقبال الجمهور قراءً ومستمعين لما يقولونه هنا وهناك . وما كان لهؤلاء الماجنين الذين لايكتبون الا وقد دارت الخمر بروءسهم ، ما كان لهم الانتشار الواسع لولا أننا رحبنا بكتيباتهم ، حتي جرؤ واحد منهم أن يؤسس دار نشر من تلك الكتيبات الهزيلة التي يرسخ فيها اسس الرذيلة والفحش بين

بناتنا وشبابنا . ولقد أسهم التعليم الاساسى اسهاماً كبيراً في أتاحة المجال لهؤلاء الدخلاء على الشعر العربي ، فالتعليم الاساسى يركز علي تعليم اللغة العربية عبر حكايات « شرشر » وصحصح وتابعه دندش إلى

آخر تلك المسخ التي تتخذ لتعليم اللغة العربية . أما تلك القصص التي تتحدث عن كرم العرب الحاتمي شعراً ، أو القصص التي تتحدث عن البطولة من خلال شعر عنترة ، أو القصص التى تتناول الهجاء والمدح من خلال مداولات الفرزدق وجرير ، كل تلك القصص اسقطت إلي غير رجعة ، وأصبح لاينطرق اليها الا باحث جاد أو قارىء مولع بثقافة الآباء والاجداد والمصيبة الاعظم أن شعر هؤلاء المارقين قد أصبح يدرس في مناهج اللغة العربية كأمثلة من الشعر العربي الحديث ، وهذا مؤشر خطير يشير إلي أن اللبنة الشعرية لدى هؤلاء الصغار قد خلطت بماء التفاهة والركاكة والعبث الموجود في شعر هؤلاء الهواة .

وما نحتاجه اليوم للرقي بشعرنا هو تربية للذوق . وعلي الاذاعة والتلفزيون والصحف مهمة رئيسية فى ذلك . فعليهم أن يقدموا لنا الامسيات الشعرية التي تطرح من خلالها أشعار جهابذة الشعراء العرب وأفذاذهم . نحن بحاجة اليوم إلي أشعار الفخر والمدح والهجاء حتي نتعلم منها الكثير ، نحن بحاجة إلي صوت الاجداد ليوقظنا من غفوتنا . نحن بحاجة إلي الشعر الذي يذكرنا بما صنع الاقدمون واذا دأبت الأجهزة الإعلامية علي اسقاط شعر هؤلاء المارقين ، وإفساح المجال للشعر الجاد فقط والشعر المقفى خصوصاً ، فانها سوف تخلق نهضة شعرية أهم مافيها الالتزام بالقالب الشعري العربي الأصيل . وكفانا ما قرأنا من نثر متبجح يدعي أصحابه أنه شعر ، وكفانا ماسمعنا من أشعار تغني علي لسان ذلك المغنى أو تلك المطربة . وهنا نتجه إلي أجهزة الاعلام مرة أخرى بأن تمنع اذاعة الأغاني التي تكتب بالعامية لأن هؤلاء الشعراء المحدثين يستخدمون العامية في كتاباتهم الغنائية حفظهم الله . فهم لايستطيعون

الكتابة بالفصحى .

فالأغنية العربية يجب أن تكون قصيدة حلوة يتغني بها الشعب . ولغتنا قادرة علي التعبير شعراً عن كل شيء بدءاً من الغزل العفيف والبكاء على الاطلال ووصولاً إلي أزمة أسعار البترول . فقد تناول الدكتور مانع سعيد العتيبة وزير البترول بدولة الامارات العربية المتحدة أزمة اسعار البترول والأوبك في قصيدة شعرية جميلة - نشرت بالشرق الاوسط - التزم فيها القافية والوزن العربيين وتحدث فيها أبلغ ما يكون الحديث وأصاب هدفه أيما اصابة دون ركاكة ودون وقوع في زلل وأعاد الينا بتلك القصيدة القول المشهور الشعر قاموس العرب والشعر هو لغة العرب . فلماذا نستحى من ذلك الفخر ؟ ولماذا نتهرب من ذلك الشرف العظيم ؟ نحن أمة شاعرة ، تقرظ الشعر في الفخر والهجاء والحب وتقرظه في المأكل والملبس والمشرب ، وتقرظه في وصف الليل والنهار والفجر . وهل قصر الشعراء العرب المجدون في وصف شيء ما يوماً ما ؟ الإجابة أن الشعر العربي قد وصف دقائق البيئة العربية .

ولاينكر محقق ان القصة العربية وجدت كاملة في اشعار الجاهلية وان القصة العربية متواجدة قبل القصة الأوروبية بقرون ولكن من خلال الشعر . فالعربي ذكي بطبعه ومن ثم كانت سطور شعره القليلة تحكي قصة مركزة تفيض بالاحداث والمعاني . أما الأوروبي فإن نمط تفكيره يحتاج إلي اطالة واسهاب واغراق في الوصف حتي كان حجم قصته طويلاً كما نراه ،وما يعبر عنه شاعر عربي مجد في قصيدة يعبر عنه روائى أوروبي في قصة تتعدي صفحاتها المئتين .

أن عودتنا إلي قوالب وقوانين وقوافي الشعر العربي القديم هي تماماً

كمن يعود إلي بيته كي يرتدي معطفاً يحميه بلل المطر ، وهي تماماً كمن يمسك بكشاف يرى به الطريق في الظلام الدامس ، وهي تماماً كمن يعود إلي بيته فيوقد النار فيتدفأ بها في برد الشتاء ، فشعرنا العربي القديم مليىء بالقوافي التي تفي بالأغراض المتعددة ، ولغتنا طيبة العطاء معينها لاينضب ، وخيرها دائم ، فهلموا أيها الشعراء المحدثين إلي شعر الآباء واستسمحوهم العذر فيما ارتكبتم من أخطاء نتيجة تقليدكم الشعر الفرنسي والشعر الانجليزي والشعر الامريكي ، تلك الاشعار الباردة التي لاتناسب اذواقنا ولابيئتنا ، علينا أن نتبرأ منها حتي نبرأ مما أصابنا من مرض قضى علي لغتنا العربية ، أو يكاد يقضى عليها .

١٩٨٦/٢/٨م

٤ - الكاتب والمجتمع « ٢ »

وللصحافة دورها المؤثر فى حياتنا الثقافية ، فالصحف الأدبى قد يكون ناقداً غير متخصص ، وقد يكتب عن المسرح أو عن القصة أو حتي عن الشعر ، ولكن لكتاباته أثر ما في مدي نحاح أو فشل الكاتب ، أما اذا كان الصحفي ناقداً متخصصاً فإن مايكتبه سيكون مجال حديثنا في نهاية هذا المقال ، حيث نتناول فيه دور النقد في حياة الثقافة العربية . وقد لايختلف معنا كثيرون في أن غالب الصحف العربية ، صحف رسمية تعبر عن أراء الحكومات والنظم الرسمية ، ولذا فليس غريباً أن تكون أقلام الصحافيين مجندة لخدمة الاهداف الحكومية المعلنة ، وذلك التجنيد الرسمي ينطبق علي أقلام الصحف الأدبية أيضاً . ففي مصر مثلاً وفي فترة انتعاش العلاقات المصرية السوفيتية نشطت أقلام كتاب ونقاد يسمون أنفسهم بأصحاب الفكر التقدمي وأنضم اليهم زمرة من الكتاب اليساريين ، والاشتراكين والشيوعين أيضاً . ومن ثم أخذت تلك الاقلام تمجد القصص والمسرحيات والأشعار التي تتناول الأرض وجهاد العامل والفلاح وما يلاقيه الناس في حياتهم من مشقة وعناء طوال اليوم . وأخذت تلك الاقلام تطالب بالمزيد والمزيد من فنون الأدب التي تتغني بنضال الشعوب المكافحة لأجل الاستقلال والحرية . واذكت مقالات هؤلاء الصحافيين روح الثورة لدي الكثير من الشباب الذين كان مصيرهم الدوران في سلسلة من الحلقات المفرغة يتراوح مداها من السجون الحربية الي النيابات العسكرية الي التشرد خارج مصر ، وطفت صفة النضال والكفاح

والواقعية والمعاناة علي ما غيرها من صفات أدبية بدونها يفتقد العمل المقدم صفة الفنية والابتكار ، وقد بدا للبعض أن ما يقدم من قصص ومسرحيات وأشعار أنما هو بيانات يصدرها أحد المسئولين في شكل مسرحية أو قصيدة أو قصة . وظهرت جماعات من المنافقين الذين ظلموا الادب واساءوا الي كنهه من أجل ارضاء السلطان والتقرب اليه ، حتي أن رئيس قسم اللغة الانجليزية في أحدي الكليات المصرية الغي جميع الاشعار والقصص والمسرحيات الامريكية من مقرر الدراسة . ومن المؤسف أن نفس الاستاذ قد طغي إسمه علي ما دونه من اسماء في فترة لاحقة كانت مصر تتجه فيها إلى الغرب وإلي أمريكا بصفة خاصة . وتغيرت الأمور السياسية ، وتغير تيار الحكم العام وبدأ يتجه نحو الغرب وأمريكا وعليه فقد نشطت أقلام تمجد الغرب ، وتمجد الفردية في الأعمال الأدبية وأخذت تلك الاقلام تبرز إلي الوجود النظريات النقدية الغربية ، وأخذت الصحف تطالعنا صباح مساء بأعمال وأفكار كتاب الغرب ، وبالتدريج جعل هؤلاء الصحفيون الناس ينسون ما كتب عن قصص نضال وكفاح الشعوب وأنسوهم قصص العامل ، وحل محلها قصص تنيسي وليامز ، وأجاثاكريستى ، ولورانس . وإلي كل المسرح الغربي والامريكي . وإلي كل الشعر الغربى والامريكي ، إلي كل القصة الغربية والامريكية ، اتجهت الانظار وتحولت العقول .

أخذت من مصر مثالاً لأدلل به علي مدي تأثير الصحافة الأدبية علي حركة الأدب عموماً ، وثقتي كبيرة أن شعوباً عربية أخري يحدث فيها نفس ما يحدث في مصر ، ولكني لا أريد التحدث عن ذلك كي لااتطرق

إلي السياسة من بعيد أو من قريب . والكلمة في الصحيفة السيارة ذات فعالية وخصوصاً اذا اتخذت شكلاً قادراً علي التأثير وجذب الانتباه . وهذه النوعية من الصحافة لاتشجع ابداً علي قيا أدب عربي جيد ،فأدب التيارات لايستمر طويلاً ، وأدب خدمة الأنظمة لايعمر أبداً وأدب يخدم الساسة والحكام لاينظر اليه نظرة احترام أو تقدير . ولاننسى حقيقة تاريخية وهي أن اليوم الذي يموت فيه السلطان يموت فيه شاعره ، فالصحافة التي تجند اقلامها لخدمة تيارات أدبية معينة ، هي كشاعر البلاط ، يوم أن يسقط ذلك السلطان أو يتغير النظام ، تسقط معه تلك الاقلام ، وتبدأ أقلام أخري في الظهور .

وما من سبيل لايجاد صحافة أدبية عربية نزيهة الا أن نضمن لهؤلاء الصحفين حرية الكتابة . ولا غضاضة في أن يجتمع في الصحيفة الواحدة قلم يساري يميل إلي الاشتراكية ، وقلم أخر يميني يميل إلي الرأسمالية الحرة ، وقلم ثالث اسلامي محافظ . فهذا التواجد للاقلام الثلاثة يساعد كثيراً في تقديم وجهات نظر لابد أن يعرفها عامة القراء ، وغياب واحد منها يعني غياب شريحة كاملة من المجتمع وعلينا أن نعلم أن الفكرة التي تخرج إلي النور لايكون من ورائها خطر كبير أما الفكرة التي تبقي حبيسة في صدور أصحابها قد تجد طريقاً آخر غير الصحف والمجلات لتظهر فيه . وهنا الخطر ، وهنا تكون الخسارة أكبر وستكون المواجهة مكلفة مالاً ورجالاً .

ويتعجب الانسان من وضع بعض اقلام الصحافة الأدبية ، حيث يميل بعضهم غرباً وكأنه ولد هناك وعاش وتربي في أمريكا أو أوربا ، وبعضهم الآخر يميل شرقاً وكأنه ولد وتربي في روسيا ، أو أحدي الدول الشيوعية.

ولكننا نعرف جيداً أنهم ولدوا وتربوا وعاشوا بيننا ، وأن سفرهم إلي تلك الدول اليسارية أو اليمينية كان علي حساب الدولة ، وكان علي حساب فقر الشعوب العربية ، وكان علي حساب مرض الشعوب العربية ، وكان علي حساب جهل الشعوب العربية ، بعض هؤلاء الصحفيين لايستحون من اعلان ولائهم المطلق للغرب أو للشرق ، ونسوا أنهم في بلاد يرتفع فيها آذان الصلوات خمس مرات يومياً . ومن ثم عليهم أن يستجيبوا لذلك النداء ويتقوا الله في أعمالهم وفيما ينادون اليه في كتاباتهم .

وأخال أحد هؤلاء الصحفين يرد بأنه لايوجد أدب عربي حتي نتحدث عنه فلماذا اللوم ولما العتاب ؟ .

وأظن هذا استفساراً غير موضوعي ، فالادب العربي الاسلامي الملتزم متواجد في كل ميدان ، متواجد في التراث ومتواجد في العصر الحديث ، ومتواجد في الجامعات ومتواجد في المدارس . وأماوقد غابت عنه الصحافة الأدبية وغابت عنه الاقلام التي تبرزه الي الوجود فيراه الناس ، فانه يبدو لاوجود له .

وعدوي التغرب أو التشرق أصابت عقول هؤلاء الصحافين فأصبحوا لايرون الدنيا الا غرباً أو شرقاً .

ولكي تتحقق لنا صحافة أدبية نزيهة فانه ينبغي أن نعود إلي عهد الصحف الخاصة وإلي عهد المؤسسات الصحفية التي ينشؤها أفراد علي حسابهم الخاص . .

وأنا هنا أحي تجربة مؤسسة الشرق الأوسط الصحفية ، التي تفتح

الباب علي مصراعيه لجميع الاتجاهات ، وتترك للقاري الحرية في الاختيار بين الأراء والاتجاهات . فالتدخل الحكومي في شئون الصحافة الأدبية يفسد الذوق الأدبي العام ويؤدي إلي ضحالة في الفكر المنشور والمقروء . وفي نفس الوقت فأن الآراء التي تمنع من النشر تتقوقع أو تتشرنق إلي وقت آخر يكون بعده مايكون من صورة سيئة لظهورها وخروجها من بياتها الشتوي الذي واكب حقبة من الرقابة المحكمة عليها باستقلال الصحف ، واذا تحقق لنا ذلك فسوف نضمن ألا يتأرجح الذوق الادبي العربي جيئة وذهاباً ، بين الشرق الماركسي الشيوعي الذي يدعي التقدمية ، وبين الغرب الرأسمالي الفردي الذي يدعي هو الآخر التقدمية .

وإلي جانب استقلالية الصحافة الأدبية أولاً ينبغي أن يكون جيل الصحافة الجديد ملتزماً بالمجتمع وبقضاياه ثانياً . وأن تكون النزعة إلي قضايا المجتمع الاسلامي هي الاساس فيما يكتبون ثالثاً . فالأمة العربية بحاجة إلي اعادة بناء القيم التي تهدمت ، ولن تكون تلك العملية ناجحة الا اذا اعتمدت علي أقلام صحفيين مسلمين متمسكين بدينهم ، ومتمسكين بتراث الاباء ، والاجداد ، والصحفي الذي لم يقرأ تاريخ آبائه وأجداده لايكون صحافياً . وإنما هو شخص لايقدر مسئولية الكلمة المطبوعة ، ولايرعي الله في دينه ولافي أمته . والصحافة الأدبية العربية لابد أن تشرب ذوائب أقلامها من عصير التاريخ الاسلامي ، ولابد أن تتخذ من الفتوحات وعصور الازدهار والمجد والفخار اساساً لاعادة بناء ما أصاب قيمنا من تدهور . وإلي جانب ذلك فالصحفي الذي نريد هو قاريء موسوعي ، ولكنه متخصص في الآداب وتاريخها ، ولاينبغي أن يكون

الادب العربي فقط هو مصدر معرفته ولكن عليه أن يقرأ الآداب الأخري في أمهات كتبها وينبغي أن تعقد المؤسسات الصحفية دورات منتظمة في تعليم اللغات الاجنبية لصحفيها ، وأن تعقد الندوات التي يحضرها اساتذة أجانب وعرب متخصصون في شئون الآداب وأن تواكب أقلامهم وعقولهم ما تنتج المطابع اليوم وما قد تنتجه غداً .

واذا كان شعراؤنا وكتاب قصتنا ومسرحنا وصحفيونا يحاكون الواقع مازجين ذلك الواقع بقدر ما من الحبكات الفنية فأن مؤرخ الأدب يسجل كل ذلك كما هو ليبقي ميراثاً وتراثاً للأجيال اللاحقة ، ومؤرخ الادب غير معروف كثيراً في الادب العربي ، وان كانت هناك محاولات طيبة قام بها الاستاذ جورجى زيدان والاستاذ الدكتور شوقي ضيف وبعض آخر من اساتذة الجامعات العربية . ولكن خطوط التاريخ الادبي لم يتم تركيبها كما يجب ، ولذا فأن ما يكتب عن تاريخ الادب العربي غير منظم وغير منسق وكأنما هو خواطر ومجاملات . ومؤرخ الأدب عليه أن يكون موضوعياً بالكامل والا يميل يمنة ولا يسرة وعليه أن يرصد الواقع كما هو، ومن ناحية أخري فلكي يكون ما يقدمه صادقاً وواقعياً فأن نفس النوعية الأدبية يجب أن تكون صادقة ومطابقة للواقع . فالقصص والمسرحيات والاشعار وما تتطرق اليه الصحافة الادبية ، كل ذلك ينبغي أن يكون صادقاً وخالياً من التزييف . واذا كانت دراسة تاريخ الفلسفة جزءاً من دراسة الفلسفة ذاتها ، فاننا نجروء علي القول بأن دراسة تاريخ الادب جزء لايتجزأ من دراسة الادب نفسه ، والا فكيف نفسر التغيرات الكيفية والنوعية التي تحدث في الشعر أو القصة مثلاً . وبدون تاريخ الادب

لا نستطيع أن نتابع الحركة الادبية في أي بلد عربي وبدون تاريخ الادب لانستطيع معرفة النمط الحضاري لكل مدرسة أو اتجاه فكري في الأدب العربي . وبدون معرفة جيدة لتاريخ الادب العربي فأن جميع الاعمال الادبية العربية ستكون طفرات ، وبالتالي لايتجرأ أحد مهما كان شأنه أن يقترب منها ناقداً أو متفحصا ، وذلك لعدم اطمئنانه إلي ما يصدره من أحكام ، وعليه يبقي أدب الطفرات دون تقييم ، ويبقي هكذا طفرة بدون أصول وبدون فروع أيضاً ، حتى يطمر مع مرور الأيام . فى حين أنه لو أرخ لتلك الطفره ، ولو وجه اليها النقد اللازم ،لكانت نواة المدرسة أدبية، أو كانت نواة الاتجاه فني معين نسبق به سائر المدارس والاتجاهات الادبية في كافة انحاء العالم .

ومؤرخ الأدب ليس قصاصاً ، وليس كاتباً مسرحياً ، وليس شاعراً ، وهو أخيراً ليس صحافياً ، كما أنه ليس ناقداً ، فهو يعرف عن كل ذلك ، يعرف عن القصة والمسرح والشعر والصحافة الأدبية والسياسية ويعرف عن النقد ، وهو رجل ذواقه يستطيع أن يستحسن الادب الرفيع وأن ينفر من الادب الهابط ، ولكن ذلك الذوق الذي تربي علي الموضوعية والنزاهة لايستطيع أن يظلم أدباً رفيعاً فيحقره ، وكذلك لايستطيع أن يغير من شأن أدب هابط فيرفعه ، ولايختلف ضمير المؤرخ الادبي وذوقه مع ضمير وذوق الامة ، فالمؤرخ الذي يرفض المسرح الهزلي الذي نراه اليوم ، لابد أن شعباً بكامله يشاركه ذلك الرفض ، والمؤرخ الذي يتحسر علي ما وصل اليه حال الشعر العربي اليوم لابد أن أمة بكاملها تشاركه تلك الحسرة وذلك الحزن .

ومؤرخ الادب العربي مسئول مسئولية كبيرة عن نجاح المدارس الادبية والفنية التي تظهر في عالمنا العربي . فأن هو تناول المدرسة بالرصد والتحليل والنقد الموضوعي كان لها نصيب من الاتباع والحواريين . وان هو أهملها وأسقطها من حسابه فأنها لن تنال نصيباً من التأثير في جمهور القراء المتطلعين إلي جديد في الادب . ولايشترط أن تكون جميع المدارس الأدبية التي تظهر جديدة مئة بالمئة . فقد تظهر مدرسة أدبية في أواخر الثمانينات متخذة من مدارس الادب العباسي مصدراً لها . وقد تظهر مدرسة وأخرى متخذة من اشعار البارودي أو أحمد شوقي نبراساً لها .

وهنا تكون أهمية تاريخ المدارس الأدبية ، فان كانت كتابة تاريخ تلك المدرسة صادقه ومحققة كان في ذلك خدمة جليلة للاتباع الجدد ، أما اذا كان هناك زيف وزلل واعلاء للخواطر والأهواء ، فقد وقع الاتباع الجدد في ضلال الزيف والتزوير .

واذا كنا نعول علي صدق التاريخ الأدبي ونعلق عليه أهمية كبري فاننا أيضاً نحبذ وجود أكثر من مؤرخ للحركة الواحدة . ونحبذ وجود المؤرخ القادح والمؤرخ المادح . فبدون اختلاف وجهات النظر لايكون هناك رأى صائب . وبدون وجود رأى يدعو إلي الشك لايتكون رأى يقينى كامل . فالتعدد في وجهات نظر المؤرخين مطلوب ، وتعدد صياغات الاحداث أمر ضروري ، واختلاف الروايات أمر هام ليتمكن متتبع تاريخ الادب العربي من الخلوص إلي فكرة يقينية أخيرة .

وهنا نجد حديثنا يتطرق إلي رجل آخر في السداسية الأدبية التي نتحدث عنها ، الا وهو الناقد ، فالناقد في الادب العربي هو الشخص

الذي يصدر أحكاماً أدبية لها قدر من الفاعلية - ايجاباً أو سلباً ، علي أعمال أدبية رسخت دعائمها ، وتوثقت عراها مستنداً في ذلك إلي وقائع التاريخ الادبي التي يقدمها له مؤرخ أدبي نزيه وعادل . وناقد الأدب العربي رجل واع بتاريخ أمته الأدبي كافة ، يصدر أحكاماً لها فاعلية في تحريك جمهور القراء ، وناقد الادب العربي انسان يربط ما بين أيدينا من عمل أدبي صرف بواقعنا . وعليه أن يحل رموز تلك القصيدة أو رموز تلك القصة . أو أن يكشف غموض تلك المسرحية رابطاً اياها بواقعنا أو بتاريخنا ، واذا ما وجد أنها لاترتبط بواقعنا أو بتاريخنا فليسقطها من حساب التراث الأدبي وليصدر حكمه عليها بالاستغراب وأنها نشاز وغير متفقة مع بيئتنا وحاضرتنا الأدبية العربية .

ويجب أن تتوفر في الناقد العربي عدة شروط أولها النزاهة والبعد عن الغرض ، وأن ينظر إلي الأعمال الأدبية كما هي لا كما ينبغي أن تكون . فأن ملكة التأليف والأبداع تتسيد ذؤابة قلم المؤلف ولا دخل له فيها ، والالهام الادبي يجعل الكلمات تنهمر من قريحة الكاتب دون وعي أبداً فتأتي الكلمات متناسقة ومتقاربة ومتجاورة ، ولا دخل هنا ابداً لأمور العقل والمنطق في الصياغة الأدبية ، وقد استغرب كثير من الأدباء عندما نظروا إلي أعمالهم بعدما اكتملت ، وكان مصدر استغرابهم هو سؤال مؤداه كيف أتوا بتلك الكلمات أو بتلك الصياغات التي يرونها ، وبذلك لايكون من حق الناقد الادبي أن يتصور تعديلاً معينا في شكل العمل الابداعي الذي يتناوله . عليه فقط أن يعالجه كما هو دون الدخول إلي اقتراحات بتعديل أو تغيير في كنه العمل الذي بين يديه .

والناقد الادبي العربي يأخذ من تاريخ الادب العربي ما« وزاده ، وهو يأخذ من كافة الاتجاهات النقدية الحديثة والمعاصرة أدوات لصياغاته النقدية . وهنا ينبغي التنبيه إلي أن الميل إلي مدرسة نقدية معينه خطأ كبير ، فالمدرسة النفسية والمدرسة الاجتماعية والمدرسة الشكلية والمدرسة الواقعية ، مدارس النقد تلك لايصلح أي منها - منفرداً - ليكون أساساً لصياغات النقد العربي عليه .َ الناقد العربى أن ينتقي وأن يستخلص من كل تلك المدارس مدرسة انتقائية تفي بغرضه . فأمور الأدب لاتحتمل القالبية ، ولاتحتمل التشكيل في شكل طوابع وقوالب . وإنما هي أمور نسبية . ومخطىء ذلك الناقد الذي يتناول جميع اعمال نجيب محفوظ من زاوية النقد الاجتماعي فقط . ومخطىء من يتناول أعمال محمود حسن اسماعيل من الناحية النفسية فقط . فالكاتب حين يكتب لاينفصل عن المجتمع ، أنه يمشي معنا ويتكلم لغتنا ويأكل معنا ويعيش في جنبات عالمنا ، لكنه تميز بما منحه الله من قدرة علي صياغة الكلمات في الشكل المتميز الذي نراه قصة أو مسرحية أو شعراً أو تاريخا . أنه يكتب ما نقول ويتحدث عما نحس ويهمس بما نفكر ويحذر مما نخشى ونخاف ، واذا طبقنا مبادىء مدرسة واحدة علي أي من تلك الأعمال فانما نحكم علي كامل المجتمع بضيق الأفق ونوقع المجتمع في سوء الظن به .

أن السعادة تغمرني بوجود نقاد عرب جادين يعيشون بيننا ، ولكننا نتطلع إلي مزيد ومزيد منهم . فالناقد الجاد هو المسئول عن وجود وبقاء أدب جاد وهو المسئول عن اختفائه . ويوم أن تلهي النقاد العرب بأمور غير النقد هبط الادب وهبطت مستوياته . وطفحت إلي سطح عالمنا العربي

أداب رخيصة وقصائد هابطة ومسرحيات هزيلة وقصص فاضحة . فالناقد هو الباب الذي من خلاله تعبر جميع الاعمال الأدبية إلي الناس . في غيابه يختلط الحابل بالنابل . وفي غيابه يختلط الرمل بالزبد ، وفي عدم وجوده يختلط ما ينفع الناس بما يذهب جفاء .

ولانتصور أبداً أن يكون الناقد عدواً لكاتب معين ، علي العكس من ذلك ينبغي أن يكون الناقد صديقاً حميماً للكاتب المبدع يأخذ بيده ويشد علي ساعده . ويكفي أن نتذكر تلك الصداقة التي نشأت بين تي . اس . اليوت (١٨٨٢-١٩٦٤م) وايزرا باوند (١٨٨٥-١٩٧٢م) والتي تجلت أيما تجلي في كتابة الأول لقصيدته شائعة الذكر الأرض اليباب (١٩١٩-١٩٢٢م) فقد أحال اليوت مخطوط تلك القصيدة إلي باوند ليبدي عليها ملاحظاته ويحذف منها ما يشاء . وبعد ظهور تلك القصيدة بسنوات ، نشر الاصل المكتوب بخط يد اليوت وعليها ملاحظات باوند ، وبدا كم كان تدخل باوند كبيراً بالشطب والاحلال والابدال . ولم يغضب اليوت لذلك التدخل الناقد من صديقه باوند . وخرجت الأرض اليباب بشكلها الذي ارتضاه باوند ليحير الناس وليوقع أقلام وعقول محبي الشعر في خلافات نقديه كثيرة نتج عنها الكثير والكثير من المؤلفات والمقالات التي تحاول أن تحل رموز وأن تتعمق كنه ومكنون تلك القصيدة الجميلة والطويلة والعميقة والدسمة والتي تدعو الي التفكير في كل سطر بل وفي كل كلمة من كلماتها . وعلي هذا النسق نريد لكتابنا ونقادنا أن يسيروا ، فالصداقة بينهم واجبة والتعاون بينهم ضرورة . أما ما عرفناه عن عداء بين النقاد والكتاب فهو ظاهرة غير طيبة ، وهي تثير عداء بين جماهير القراء

قد يتحول - وهذا ما يحدث فعلاً - إلي عداء سياسي وربما إلي حرب طاحنة بمرور الأيام وزيادة المشاحنات .

وبعد ، فأرجو أن أكون بهذه الصفحات قد أوفيت أعمدة الأدب العربي بعضاً من حقوقهم ، وأن أكون قد تحدثت عن بعض من واجباتهم . وأرجو الا أكون قد اسقطت من تقييمي شيئاً عن : كاتب القصة العربية ، وكاتب المسرح العربي ، والشاعر العربي والصحافي الأدبي العربي ، والمؤرخ الأدبي العربي ، وناقد الأدب العربي ، فهم جميعاً أخوة متحابون من أجل خلق أدب عربي مسلم يتصف بالجدية والحداثة والمعاصرة ايضاً . ولانريد من وراء كلماتنا الناقدة الا الجدية ، وأن يكون جميع أفراد الاسرة الأدبية العربية علي خير ما يرام .

١٩٨٦/٢/١٥م

٥ - الإبداع الأدبي والتخصص الدراسي

كان الاعتزاز بالمهنة والتمكن من علومها دافعا لاحد العلماء قديما أن يكتب علي باب* مجلسه لا يدخل علينا الا من كان مهندساً . ومن المعروف أن المهندس لابد أن يكون قد درس الهندسة وتخصص فيها ثم مارسها حتي تسبغ عليه تلك المهنه صفتها . لكن الأديب لايستطيع أن يكتب علي باب مجلسه مثل ذلك الأعلان الاعتزازى لا يدخل علينا الا من كان أديباً . لأن الأدباء ليسوا جميعا دارسي أدب ، كما أنهم ليسوا جميعا متخصصين فيه . فقد يدخل حقل الادب طبيب أو صيدلي أو عالم رياضيات أو حتي مهندس . واذا كان ذلك العالم الفيلسوف قد حدد قطاعاً معيناً من الناس ليدخلوا عليه وهم المهندسون ، فإن الأديب لايستطيع تحديد نوعية داخلى مجلسه ، وقد يدخل مجلس الأدب انسان لم يلحق بالمدارس الا لتعلم القرأة والكتابه ، ولكنه في النهاية أديب متمكن وحجة يستند اليها لدي كل جدال ونزال . وعليه نطرح سؤال هذه الدراسة : هل ثمة علاقة بين الابداع الأدبي والتخصص الدراسي ؟ الاجابه لا . فالابداع الأدبي لايرتبط بالدراسه وإنما هو مجموع الظروف البيئية والنفسية والثقافية والحضارية مجتمعة تؤدي إلي انتاج أدبي يحمل صفات الكاتب ونري فيه بصمات مجموع تلك الظروف .

---

* نشرة بجريدة الشرق الأوسط فى ثلاث حلقات الأولى فى ١٩٨٧/١/١٠ بالعدد ٢٩٦٥ ، الثانية فى ١١ / ١/ ١٩٨٧ م بالعدد ٢٩٦٦ ، الثالثة فى ١٩٨٧/٩/١٢ م بالعدد ٢٩٦٧ .

وأمامي نخبة من أدبائنا لايجمعهم الا شيء واحد الا وهو الادب والفكر ، فقد اختلفوا في دراستهم الجامعيه ، وتعددت مشاربهم ، وتباعدت مصادر ثقافتهم ، وتنوعت بيئاتهم ولكن جمعهم الأدب والفكر وحدهما . من بين هؤلاء عملاق الفكر العربي الاسلامي الحديث ، عباس محمود العقاد الذي رحل عن عالمنا عام ١٩٦٤م ، والذي لم يتلق تعليما جامعيا علي الاطلاق ، وعلي أرجح الروايات فانه واصل تعليمه حتي الصف الخامس الابتدائي حينما زاره في مدرسته الشيخ محمد عبده وأعجب بكتابته ، ومن يومها أخذ ذلك التشجيع مأخذه في نفسه ، فعكف علي الدرس والاطلاع وحيداً ، وكان ما كان للعقاد من حديث ذائع وسمعة أطبقت الأفاق ، وحينما أوعز اليه أحد المقربين منه أن يتقدم للحصول علي الدكتوراه من احدي الجامعات سخر من ايعاز محدثه سائلا عن كنه وماهية الشخص الذي سيناقشه للدكتوراه . ذلك التعالي العلمي ، وذلك التسامي فوق المسميات العلمية التي توضع علي أوراق سميكة لامعه تتراوح بين الورق العادي وورق البنكنوت ، له أساس قوي في نفس استاذ الاجيال عباس محمود العقاد ، فالعقاد كاتب العبقريات الاسلامية ، عبقرية عمر ، وعبقرية الصديق ، وعبقرية محمد ، يستحق ثلاثة شهادات للدكتوراه تخط بالذهب ، فكل كتاب من هؤلاء إعجاز فكري بشري لنا أن نعتز به . ولاينكر أساطين الفكر الاكاديمي قيمة تلك الكتب الثلاثة وما أورده فيها من افكار جديره بالتوقف عندها والتطلع في جنباتها . وكذلك لاينكر أساطين الفكر الاكاديمي مدي إصالة افكار العقاد في تلك الكتب الدسمة . وكذلك لاينكر اللغويون والنحويون فصاحة ورصانة ودقة اختيار الكلمات والاسلوب الذي صاغ به العقاد تلك الكتب الثلاثة وأن كنا قد

اشرنا إلي هذه الثلاثيه فقط ، فنحن لانغفل بقية ماكتب العقاد ، فبقية قائمة الكتب التي قدمها العقاد لاتقل شأنا عن العبقريات ، ولكن لان العبقريات تتناول سيرة الرسول عليه السلام وكذلك سيرة صحبه الابرار سيدنا عمر وسيدنا أبو بكر الصحابيين الجليلين المبشرين بالجنة ، لذلك كانت لعبقريات العقاد المساهمة الكبري في إثراء الفكر العربي الحديث والمعاصر . فمن خلال مشاركته تلك برز الكثير من المواقف في سيرة عمر وخالد وأبي بكر ، كان المستشرقون وأتباعهم يأخذونها علي هؤلاء الخلفاء الاجلاء ومن ثم يحاولون الانتقاص من شأنهم . ولقد تبعهم بعض من مفكرينا العرب في هذا الفهم الخاطيء لسلوك تفسير المجازات هؤلاء الافذاذ .

وأضافة إلي ما كتب العقاد في كتبه وما نشر في مقالاته ، فقد خلب أذآن المستمعين ، وجعلهم يشنفون اذانهم كل مساء لسماع أحاديثه الغنية بالعلم والثقافة والمعرفه . وتلك الاحاديث قدمت للمستمعين معرفة زخمة دسمة افادوا منها كثيرا ، ولقد تفضلت اذاعة القاهرة باعادة اذاعة تلك الاحاديث التي نرجو أن تستمر اذاعتها حتي يسمعها جيل الشباب الصاعد ليستفاد منها وتعم الفائدة ، ولقد وهب الله ذلك العملاق صوتا رخيما جهودا يجذب اليه سامعه ، فكان لصوته سحر الجاذبيه التي تجعلك لاتمل سماعه لساعات طوال . وكان لذلك العملاق ملكة القاء يحسد عليها ، ومهما طال الحديث أو قصر فإنك لاتستطيع أن تحصى عليه هنة أو توقفا ، أو تلكوءاً أو استدراكا . وفي بداية عهد الأذاعه كانت الاحاديث تذاع حية وغير مسجلة ، ومن ثم كانت ملكتا الحفظ والتذكر هما السبيل لاثبات براعة المتحدث وأيضا هما وسيلة ينكشف بها المتحدث غير المتمكن اذا ما تلكأ أو استدرك أو توقف .

واذا كان العقاد قد تلقي أقل قسط من التعليم ، فإن طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) قد تبحر في التعليم الاكاديمي وأخذ يغوص في أعماق بحاره ، وقد أخذ الأزهريون عليه أخطاء كثيره من خلال أفكاره التي خالفت وخرجت عن الناموس الفكري التقليدي لعلماء الأزهر في ذلك الوقت . واذا كان كتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى (١٩٢٦م) قد أحدث ضجة كبرى فى مصر إبان ظهوره ، حتي أن مظاهرات صاخبة قامت ضده ، فإن ما قدمه طه حسين للفكر والأدب العربيين قد أثري وأثر في تجسيد أفكار ووضع لبنات مدارس جديدة في النقد والقصة - كما أن أبحاث طه حسين الأكاديمية قد وضعت اسسا لمدارس بحث أكاديمي مختلفه

والذي يراجع حياة طه حسين في شبابه لايتنبأ اطلاقا بأن نتاج تلك الحياة أديبا ومفكرا هو طه حسين في سن الإربعين أو الخمسين . فحياة طه حسين وكذلك نشأته الأولي كانت كفيله بأن تقدم إلي المجتمع داعية اسلاميا فقط ، أو أن تقدم خطيب وامام مسجد يسمعه الناس من أسبوع لاسبوع من خلال خطبة الجمعه . لكن الادب استحوذ علي ملكاته ، والتجديد والابداع أخذه إلي بحار الشعر والنثر والقصة والمسرح ، وكذلك أخذه الشوق إلي المعرفة ، إلي الاغريق واليونان فطرق بابهم ودرس علومهم ، وكذلك ذهب إلي الفرنسيين وتحدث اليهم بلغتهم ونقل عن أفكارهم وقدم طرائق نقدهم واساليبهم لأول مرة في الادب العربي ، ولقد قدم طه حسين أدبا متنوعا مكنه من اقتحام مجلس الادب العربي بقوة فجلس هناك سلطانا من السلاطين الذين كانت لهم الكلمة الأولي وكانت لهم الباع الطولي . وكان لذلك الأزهري أثره في اثراء حياتنا الثقافيه العربية الاسلامية بما قدم وبما ابتدع من أمهات افكاره .

ولايقل طه حسين كمتحدث اذاعي ناجح عن العقاد المتحدث الاذاعي الخلاب . فطه حسين يجذبك إلي المذياع فتسمعه ، وحينما يودعك تبقي مأخوذاً بسحر صوته ، وعذابة القائه وسلاسة أسلوبه البسيط السهل الذي يجذب اليه عامة الشعب. واذا كان العقاد ينتقي لغته فتأتي صعبه جزلة ، فان طه حسين ينتقي لغته فتكون سهلة وجزلة أيضا . واذا كان العقاد يتخير من اللفظ أو عره فإن طه حسين يتخير من اللفظ اسهله . وكأن طه حسين ما يزال يحمل من تأهيله الأزهري الكثير ، فالخطيب الأزهري لابد أن يوصل علوم الفقه والسيرة والحديث في أبسط اسلوب إلي عامة المصلين والسائلين ، وبقي ذلك الاثر الخطابي في أحاديثه الاذاعيه وبقي معه أيضا في كتاباته عندما كتب علي هامش السيره ، وعندما كتب دعاء الكروان وعندما كتب الشعر الجاهلي وعندما كتب حديث الأربعاء (١-٣) وعندما كتب بقية كتبه التي توسم فيها بساطة اللفظ مع عمق المعني دون تقصير عن بلوغ الهدف المطلوب من وراء كل جدال أو نزال أدبي ثقافي أو فكري . وهكذا دخل أزهري ، أعد لإلقاء الخطابه والوعظ فقط - وذلك شرف في حد ذاته ، دخل مجلس الأدباء العرب . فيصبح هو الدكتور طه حسين ، الاستاذ الجامعي ، ووزير المعارف القوي الذي فرض التعليم المجاني قبل قيام ثورة يوليو . والذي أعطي للمرأة المصريه الحق أن تتعلم بالجامعة ، ويصبح فوق كل ذلك وبعد كل ذلك رائدا من رواد النقد الادبي ورائدا من رواد إحياء التراث العربي الشعري القديم .

ويأتي توفيق الحكيم (١٨٩٨-) كثالث أديب عربي في دراستنا هذه ما كان قد درس في دراسته الجامعية مايؤهله لأن يصبح أديبا . فقد درس الحقوق وما فيها من قوانين يونانيه ورومانيه وشريعة اسلامية . ودرس

الغاز المحاماة وأحجيات وألاعيت المحامين والمتهمين ، وزاد علي ذلك أنه عمل لفترة كوكيل للنائب العام في الريف المصري - وكانت نتيجة ذلك العمل يوميات نائب في الارياف حتي أنه حينما ذهب إلي باريس لدراسة الدكتوراه في القانون عاد من هناك وقد خبت آمال أسرته في أن يصبح الدكتور توفيق الحكيم المحامي - ذلك اللقب الذي كان شرفا تسعي اليه كل أسرة مصريه احتراما منها لقيمة المحاماة ولاحساس الشعب بالظلم والاضطهاد وقد كان لفرنسا وما يزال مكانتها المرموقه في القانون الوضعي يؤمها من أراد أن يغترف من مدارس القوانين الوضعيه . خابت آمال أسرته في الحصول علي الدكتوراه في القانون ، وخبت في أنفسهم أي رغبة أن يكون لولدهم أي شأن يذكر في مجال النجاح الوظيفي . لكن توفيق الحكيم عاد من باريس بزاد معرفي ومسرحي مكنه أن يوطد دعائم المسرح العربي الحديث ، وأخذ يقدم لنا مسرحياته التي لاتنتهي ، وأخذ ينقل عن المسرح الغربي ما بين مترجم ومقتبس ، وما تلاقت فيه خواطره مع كتاب غربيين وشرقيين آخرين .ودخل توفيق الحكيم مجلس الادب العربي من أوسع أبوابه وهو المحامى ووكيل النيابه ورجل القانون الذي كان كل هم أهله يوما ما أن يعتلي منصه القضاء ليصدر حكما صارما باعدام هذا أو الاشغال الشاقة المؤبده في حق ذاك من الناس .

وجاءت أعمال توفيق الحكيم أدبا خالصا ، وذلك يخالف ما كان أعد له ، ليكتب محاضر قانونية صرفة ، لاتعرف عاطفة قط ، بل تستند إلي الماده كذا وكذا والفقره كذا وكذا من الدستور ، أو يستقي صياغاته القانونية الشرعيه من فقهاء الاسلام والمسلمين مستنداً الي مجادلات وأحكام وقياسات بن حنبل والشافعي والمالكي وأبي حنيفه الأئمة الأجلاء ،

جاءت أعمال الحكيم أدبا خالصا سائغا لكل من أراد أن يدلي بدلوه في معين المسرح العربي . قدم لنا عصفور من الشرق . وشهر زاد ، وياطالع الشجره ، وأهل الكهف ، وبيجماليون ، ويظل يقدم لنا مسرحيات أصيله وينقل عن المسرح الغربي الأوروبي ، وكذلك المسرح الشرقي إلي يومنا هذا والذي أصبح فيه شيخا هرماً تقلد فيه أعلي منصب في ريادة المفكرين والكتاب العرب دون منازع .

ولاتقل شهرة نجيب محفوظ عن أى من الادباء السابقين الذين دخلوا مجلس الأدب العربي دون أن يتخصصوا فيه أثناء الدراسه ، فنجيب محفوظ دارس للفلسفة ، وقد تقلد وظيفه حكومية لفترة طويله لم تشغله عن التأليف والنشر والابداع كل يوم . وقد كان لاعماله القصصية أثرها الكبير في تشكيل ثقافة المجتمع المصري بصفة خاصه ، والمجتمع العربي بصفة عامه ، كما كان لتلك الأعمال أثرها الكبير في إرساء البنية الاساسيه لعديد من المدارس القصصيه التي انتشرت في سائر انحاء الوطن العربي . وما من أحد ينكر فضل ميرامار وثرثرة فوق النيل والقاهرة ٣٠ وتسجيلها جميعا ارهاصات ثورة يوليو ١٩٥٢ والسكريه وقصر الشوق وزقاق المدق والحرافيش والكرنك وكذلك بقية اعمال نجيب محفوظ التي يحار المرء في معرفة جذورها الفنيه . فهو اذا تناول التاريخ في قصصه كان مؤرخا جذابا واذا تناول السياسه في قصصه كان سياسيا بارعا ، واذا تناول المجتمع المصري في قصصه كان استاذا في علم الاجتماع ، واذا تناول الحكاية الشعبية كان فنانا شعبيا متميزا . هذا الرجل لم يتلق درسا أدبيا في يوم من الأيام بالجامعة ليصبح عند التخرج أديبا أو عاملا بالأدب . ولكن دراسته كانت أرقاما وأعدادا واحصاءات

لاتعرف عاطفة ولاتعرف ميلا أو هوي . فحب الادب استحوذ عليه وكان أن تفتقت ملكة الابداع عن نجيب محفوظ كاتب القصة العربية الذي قد لانري له مثيلا لعقود مقبلة .

وقد دخل مجلس الادب العربي واحد من عساكر مصر ، لم يكن اعداده في معسكرات الكلية الحربية وطوابير الجيش المصري ليؤهله أن يكتب قصة أو أن يعبر عن عاطفة ، أنه يوسف السباعي الذي رحل عنا عام ١٩٧٨ ، هو الضابط الفارس الوزير ، الذي تقلد طوال حياته العديد من المناصب الثقال حتي مات شهيدا لحرية الرأي والكلمة . ومجمل القول في قصص يوسف السباعي أنها فيض خواطر شباب متدفق عاصر بوادر أزمة فلسطين ، وعاصر الخيانات العربية التي وقعت .وعاصر التقاعس العربي أنذاك ، وعاصر النفاق العربي ، وعاصر ما في مجتمعاتنا من فساد جسيم ، فسجل كل ذلك في مجموعة قصصه القصيرة أرض النفاق . واذا كانت القاهرة ٣٠ ، وميرامار ، وثرثرة فوق النيل قد سجلت ارهاصات ثورة يوليو المصريه فإن رد قلبي ليوسف السباعي قد سجلت بكل دقه ميلاد واندلاع تلك الثورة التي كانت نقطة تحول في تاريخ الشعب المصري وشعوب العالم الثالث جمعاء ورد قلبي تسجل في بساطة بالغه صراع، الاقطاعي الدخيل علي المجتمع المصري الذي يملك كل شيء ، وابن الفلاح الكادح الذي يريد أن يصل إلي هدفه المنشود . ورغم تغير الواجهة الاجتماعيه لابن ذلك الفلاح لكونه قد أصبح ضابطا بالجيش المصري ، تبقي نظرة الباشا الاقطاعي إلي ابن ذلك الفلاح بدون تغيير ، فهو ما يزال يذكر أنه ابن فلاح وسيبقي ابن فلاح وان مكانه قاع المجتمع بين الطين والبرك ، وعليه أن يشرب من ماء الترع والمصاريف كما يعيش أهل الريف

من شاكلته .

ويدخل يوسف السباعي مجالا آخر في الوصف الاجتماعي الواقعي لحياة الشعب المصري حين يقدم لنا السقامات حيث يتجلي في ذلك العمل الصراع الاجتماعي بين الذين يملكون كل شيء والذين يعيشون علي الفتات ويدخل الطفل الوديع الذي يرمز إلي المجتمع الكادح في جدل منطقي مع الرجل الثري . فالطفل متهم بالسرقه ، ولكنه يبرر سرقته بأنه جوعان ومن ثم فهو سرق ليأكل وليس الهدف من سرقاته تلك أن يتكسب مالا ببيع أو تخزين ما سرق . أن تلك القصة تنبه الأثرياء ألاينسوا فضل الفقراء ، وهي تنبه الاثرياء الا يغالوا في تحليل الأمور فيظلموا من كانوا يوما سببا في ثروتهم : فلولا الفلاح لما زرعت الأرض ولولا العامل لما دار المصنع ، ولولا كل المطحونين لما قامت ثروات كل الاقطاعيين .

ومن يقرأ قصص السباعي يحس بدم الشباب يتدفق في عروق كلماته ، ويحس بنبض الصفحات عاليا . فأنت أمام شاب يكتب ما بنفسه من غيره علي وطنه وأمته ، وأنت أمام شاب يتحدث عن مشاكله العاطفيه ويتحدث عن موقفه تجاه المرأة في شكل قصص لم يكتمل نضجه بعد . فقصص يوسف الساعى غير ناضجه فنيا ، ولكننا لاننكر أنها تدخل ضمن المساهمات الجادة التي قدمها ذلك الكاتب الراحل لاثراء القصه العربيه ، ودخل بها مجلس الأدب العربي .

واذا كان كل من العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف السباعي قد دخلوا مجلس الأدب العربي فإن نشأتهم وتربيتهم النفسيه كانت تساعد كلا منهم أن يصبح أديبا .وكانت ميولهم نحو الادب ومجالسه أكثر من ميولهم إلي العلوم من فيزياء وكيمياء وعلوم حياة أو

رياضيات . ولكن ما بالنا بثلاثة آخرين نشأوا في تعليمهم الثانوي بين المختبرات والتحصص العلمي الذي أدي بهم في النهاية إلي الالتحاق بكلية الطب ليمسكوا مشرطا ويرتدوا معطفا بالمستشفي أو العيادة وخلعوا المعطف الأبيض ، لينضموا إلي أدبائنا ، فيصبحون من صفوتهم ويصبحون في مقدمة صفوفهم ، هؤلاء الأطباء الثلاثة هم ابراهيم ناجي شاعر الرومانسيه العربيه ، والثاني هو يوسف ادريس كاتب القصة القصيره والمسرحيه المتميز ، ذو الاسلوب الرشيق وذو المعني الدقيق ، أما الثالث فهو مصطفي محمود الكاتب الفيلسوف المتعمق لالاء الله ، الذي مزج ما عرف من العلم وعلوم الاحياء بما هداه الله اليه من نور الإيمان بعد رحلة طويله مع الشك .

خاتمـــــه :

تعرضنا في الصفحات السابقه لاسماء ثمانية من ادبائنا ومفكرينا اثروا وأغنوا الحياة الأدبيه العربيه قدر جهدهم . وكانت خلاصة القول أن أيا منهم لم يتخصص في الادب كي يصبح أديبا بل أن ثلاثة منهم وهم ابراهيم ناجي ويوسف ادريس ومصطفي محمود أطباء ، ولايتوقع أحد أن يقترب طبيب من العواطف والاحاسيس والخلجات والزفرات وكل تلك لها أهميتها في عالم الأدب . وبذا نكون قد وصلنا إلي نتيجة رئيسية وهي أن مايمكن أن يبدو في مظهره فوضى ثقافيه قد تحول إلي مظهر حضاري صحي انعكس في الاضافات الثقافيه والمساهمات الأدبيه التي قدمها هؤلاء الكتاب إلي الادب العربي .

الا أننا أمام مثال آخر نطرحه في هذه الدراسه لنثبت به عكس النتيجه التي توصلنا اليها . وهي أن دخول غير المتخصص إلي جوقة الادب يعتبر فوضى، ويعتبر تعديا علي حرفة الادب. ذلك المثال يتلخص في تجربة اسماعيل ولي الدين القصصيه. ونحن هنا لانتعرض لشخصه ، ولكننا نتعرض لنتاجه الذي أدخل بطريق الخطأ ضمن النتاج الادبي العربي المعاصر. اسماعيل ولي الدين قصاص نتاج فترة من تاريخ القصة المصرية التي لانستطيع اخفاءها أو التكتم عليها ، وكذلك لايستطيع انسان ما أن يسدل علي تلك الفترة ستاراً من أى نوع علي سبيل الاستحياء أو التستر علي البليه . تلك الفترة واكبت انحطاط القيم والاخلاق لدي شريحة من الناس في المجتمع المصري ، تلك الفترة شهدت تدهورا أخلاقيا واكب الفهم المفاجيء الذي غمر فئة من الأغنياء وأصحاب الحظ (راجع رسالة الماجستير المقدمة من سامية سعيد إلي كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وموضوعها الأصول الأجتماعية لنخبة الانفتاح الأقتصادى فى المجتمع

المصرى (١٩٧٤ - ١٩٨٠م) هؤلاء الأغنياء لا حيثية لهم الأكيان لهم ، بل ولاجذور لهم وان شئات فقل إنهم حثالة المجتمع من الأفاقين والنصابين وتجار الحشيش والمخدرات الذين تتسع ذممهم لكل ما يلذ وما يطيب لاعينهم الحادة التي تغوص عن آخرها في وجوه سمينة يفيض حولها اللحم مترهلا وقد غطى رقابهم .

فقصص اسماعيل ولي الدين كظاهرة أدبية ، تعبر عن تلك الشريحة أيما تعبير ، وهو قد غاص في ذلك المجتمع حتي وصل إلي أعماقه ، فأخرج منه - في قصصه - صوراً حية معبرة بكل مايكون في التعبير من ايحاء وصدق : قدم لنا عددا من بنات الهوي اللاتي يسرن في ذلك الدرب إلي مالا نهاية في ظلمة ليل مدلهم : قدم لنا قصص الثراء الفاحش ، وقدم لنا مجملا كل رذيل وكل خبيث وكل شيء ، وكأنه بذلك يستكمل دراسة في قيعان المجتمع المصري . كأنه أيضا يستكمل أطروحة في علم التدني الخلقي وتردي الذوق لم يطلب اليه أن يقدمها إلي أي جهة الا إلي نفسه وإلي تلك الفئة التي ندعو الله أن يخلصنا منها ، فالبلية كبيرة والبلاء شديد . وتلك القصص مثل الباطنيه وحمام الملاطيلى ودرب التفاح والعاشقان والسلخانه ودرب العسكر وحمص أخضر ولدت ضعيفة وتوقف تطورها ونموها لاسباب كثيره ، وبقيت ضعيفة البنيه ويصيبها كل يوم الكثير والكثير من الامراض والعلل الفنيه . وتلك القصص لاتقوي أمام النقد واعادة النظر ، ولاتستطيع قصصه مجتمعه أن تقنع أي قاريء بفكرة معينه ، وقارئه - أن وجد - لايخرج برأى يعبر عن الكاتب . فمن يقرأ قصصه يسأل عن شخصية المؤلف ولكنه لايجدها ، لأنها اختفت وراء نسيج هلامي من الاحداث الغير متماسكه والصور الغير متناسقه .

١٩٨٦/٢/١٢م

٦ - الوعي هو أساس بناء البلاد

رسالة الأخ هيمن أحمد يونس إلي جريدة الشرق الأوسط بعنوان : متي يتركنا العالم كي نبني بلادنا ؟ بتاريخ ١٩٨٦/١٢/٢٩م ومقالة الكاتب المخضرم أحمد أبو الفتح تعليقا عليها بعنوان : لن يتركنا العالم ولكن بالعدد رقم ٢٩٦٥ بتاريخ ١٩٨٧/١/١٠م ، نكأتا في نفسى وفي نفس كل أفراد جيل ثورة يوليو جراحا عميقة لم تندمل . تلك الجراح غائرة في نفوسنا لافي أجسادنا ، فلقد قدمت لنا الثورة نفسها من خلال أبواقها واذا عيبها المشهودين علي أنها مقدم الخير ، وبشير السعد ، وأنه مع حلولها سيتغير وجه التاريخ وتصبح مصر جنة دائمة الخضرة . وقد فرحنا بكل ذلك وسعدنا للانجازات التي رأينا الكثير منها وكشباب متدفق النشاط والحيوية صفقنا لزعماء الثورة دون تمييز حتي التهبت أيدينا ، وهتفنا بحياتهم حتي وهم علي نعش الموت ، ويوم مات الزعيم الأول لم نصدق ولم نتصور أنه قد مات .

وعندما أصبح لدينا قدر أكبر من الوعي والدراسة نظرنا حولنا ، فوجدنا من ينتقدنا ويستنكر علينا تلك الحماسة التي أستيء توقيتها واستخدامها . لقد خلقت الثورة في انفسنا كراهة لجيل ما قبل الثورة : التاريخ ، والمجتمع ، والفكر ، والأدب . باختصار شديد ، أصبحت مصر ما بعد الثالث والعشرين من يوليو تكره مصر قبل ذلك التاريخ .

---

* نشر مختصرا فى جريدة الشرق الأوسط ، العدد رقم ٢٩٩٤ بتاريخ ٢/٨/ ١٩٨٧ تحت عنوان الوعى هو أساس البناء *

ودخل المصريون في صراعات خفية مع بعضهم البعض ، صراعات لانستطيع حصرها ولانستطيع عدها ، ولكن أهمها كان صراعا فكريا ، بين ما يسمونه اليمين وهو جيل ما قبل الثوره ، واليسار الراديكالي الذي جاء بعد الثورة ، أو أنها جاءت به مع ما وافتنا من بركات الخير . ولم يرحم مشرعو ومصنفو الثورة أحداً من هؤلاء اليمينين الذين اسبغوا عليهم صفة الرجعيه والعمالة وخدمة القصر ، فأدخلوا ضمنهم أحمد حسين وأحمد أبوالفتح علي سبيل المثال ، وفي المقابل أصبح من زمرة اليسار عدد لا بأس به من رجالات السجون الحربيه المصريه ،والاستخبارات والمباحث العامة والمباحث الجنائيه ، وضموا إلي هؤلاء اليساريين عددا من الضباط الاحرار الذين استثمروا الثورة خير استثمار لبناء الشركات الخاصه والحصول علي الامتيازات والتوكيلات العالميه حتي يومنا هذا ، فأصبحت مصر يمينا ويسارا ، وأصبح المصريون يعاملون على هذا الاساس في كل شيء ، ولا أنكر أن اعلام الثورة ورجاله المغاوير قد أثر فينا عظيم الاثر ، فأصبحنا نكرة اسماء كتاب مثل أحمد أبو الفتح وأحمد حسين ومصطفي أمين وعلي أمين ، إلي آخر تلك القائمة ، وأصبحنا نكره جميع الباشوات المصريين بادئين بطلعت حرب ومحمد فريد ومصطفي كامل ومنتهين بأصغر لواء في الجيش المصري قبل الثورة ، حيث كان مخولا للقب الباشا كل ضابط وصل إلي رتبة لواء .

يقول أحمد سعيد - أشهر أبواق الثورة الرنانة - في ذكرياته التي نشرت بجريدة الشرق الأوسط العدد ٢٩٤٦ يوم الخميس ١٢/٢٥/ ١٩٨٦ من الوقائع اللطيفة التي حدثت في تلك الفترة ما كان يقوم به

الرقيب الذي يستمع إلي كل شيء قبل اذاعته حتي الاغاني . وذلك لأن من اسباب استبعاد حسنى نجيب أنه اذاع أغنية عاطفيه اتضح أن بداخلها كلاما يفسر بأنه عن فاروق - آخر ملوك مصر - ولهذا كان الرقيب يراجع بنفسه كلمات الاغاني وفي يوم فوجئت بالشاعر الممثل أحمد خميس وكان زميلا لنا بالأذاعة يدخل علينا متعجبا وضاحكا لأن الرقيب قرر حذف أغنية ولد الهدي التي تتحدث عن الرسول عليه الصلاة والسلام لان بها كلمة (أمير الأنبياء) .

نجحت ثورة يوليو في قسمة الشعب المصري إلي قسمين : يميني ، ويساري ، وابتهجت أكثر بأن تركت هذين القسمين يتجاذبان أطراف النزاع والعراك في كافة مجالات الحياه ، ومهما تكن نتيجة ذلك النزاع ، فهي في صالح سدنة الثوره وقادتها ، ولذا فانه ليس غريبا أن يؤيد جيل الثورة وهم كثر ، كلما أقدم عليه زعماؤها من حرب اليمن ، إلي حرب الكونغو ، إلي حرب الجزائر . ثم إلي حروب لاحصر لها مع الدول العربيه اذاعيا وأعلاميا . وقد ساعدت الحروب الاعلامية تلك في اظهار مدي بذاءة وتدني اخلاق بعض زعماء تلك الثوره ، وحسب ماهو ثابت فان زعماء الثورة كانوا يراجعون بأنفسهم تلك البذاءات قبل اذاعتها ووصولها إلي المستمعين داخل وخارج مصر .

ولقد أثقل الزعيم الأول مصر بالديون وانهكها ، وجاء الزعيم الثاني فزاد من ديونها وانهكها أكثر باطماعه الشخصيه وقيادته المزاجيه واحلامه الارجوانيه والتي كانت البزه العسكريه الالمانيه أبسط صورها . ورحل زعماء ثورتي يوليو ومايو وبقيت مصر مكانها في نفس ابنائها

المخلصين . وبقيت مصر وما يزيد عن خمسة ملايين من ابنائها يعملون بالخارج ، وديونها الخارجيه تزيد عن أربعين بليون دولار أمريكي ، والجنيه المصري يهبط في كل يوم أمام جميع العملات العالمية والعربية ، حتي اصبح في قاع سلة العملات ، واصبح في مصر عدد من اصحاب الملايين يفوق الخمسين الفا حسب أكثر التخمينات اعتدالا .

وتلك حقائق يعرفها كل محب لمصر ، ولكنها اذا حللت تحليلا دقيقا فإنها تفجع فوجود خمسة ملايين مصري خارج وطنهم الام هو صورة تشرد غير مباشر ، والا فلماذا تضيق مصر بالخبرات المؤهلة والايدي المدربه ؟ لماذا لايطيق العاملون بالخارج البقاء أكثر من شهر أو شهرين حتي يغادروها إلي خارجها ؟ بالطبع لم تعد مصر تناسب أياً منهم ، وجدوا في خارجها الراحة ، ووجدوا ما يساعدهم علي الابداع والابتكار وتحسين خبراتهم واعمالهم ، لذا بقي هذا العدد الهائل من المؤهلين خارج مصر ، وفي ذلك خطر كبير علي الاداء الفعلي لأوجه النشاط اليومي في مصر . فهذه الملايين المهاجره من أطباء ومهندسين وصيادله ومدرسين واستشاريين وفنيين اعطوا الفرصة لنوعية أقل خبرة لتسيير دفة الأمور في مصر ، فاختلف الاداء وبالتالي اختلفت النتائج . التعليم في مصر أصبح كماً لادخل له بالكيف ، وأجور العمال الحرفيين أصبحت ارقاما خيالية لاتتناسب مع الخدمات المقدمه ، وحيث أنه لاوازع اخلاقي لدي الكثيرين من اصحاب المهن والعمل ، فلا غرابة أن تنهار العمارات علي رؤوس سكانها ، ولا غرابة الا يجد الشباب شقة بسيطة يبدأون فيها حياتهم الزوجيه رغم وجود مايزيد عن ثلاثمئة الف شقة خاليه بالقاهرة وحدها . لذا يبقي خمسة ملايين

مصري خارج مصر في حكم المتشردين من اوطانهم .

أما الديون المصرية والتي تزيد عن أربعين بليونا من الدولارات ، فإن لها خلفية سياسيه واقتصاديه لانبرىء منها زعماء الثورة وصناعها ، وليس لنا أن نزيد في الحديث عليها . الا أنه ينبغي القول أن مصر فيها خير كثير . ويستطيع ابناؤها سداد تلك الديون في أقل من سنة ، ولكن الشعب فقد الثقة في هيئاته الرسميه . فمن ذا الذي يأمن خطر التأميم كما حدث لرجالات الاعمال قبل ثورة يوليو ؟ ومن ذا الذي يأمن الخطر علي الأموال نتيجة خلاف سياسي مع السلطة ؟ ومن ذا الذي يأمن تلفيق التهم التي تفضى إلي المحاكم بأنواعها مما ينال من سمعة رجل الاعمال ورصيده في السوق ؟ أن ديون مصر لاتعني شيئا اذا ما تضافرت جهودنا نحن المصريون لسدادها ، ولكن من أين لنا بتغيير المنظور الذي أصبح ثابتا في أذهاننا . حين تكفر الثورة المباركه الأولي ، وكذلك الثورة المباركة الثانيه، كل عن اخطائها في حق الابرياء من المصريين ، فإن بناء مصر من جديد يكون أمرا سهلا . ساعتها سيسهر المصريون ولن يناموا حتي يبني مصنع أو تُحرث أرض ، ولكن أخطاء الثورتين جميعها خطايا .

ونتيجة لتلك الديون هبطت قيمة الجنيه المصري حتي أصبح في قاع سلة العملات أو أنه أستبعد من تلك السلة بعد أن كأن يعادل ثلاثة جنيهات استرلينيه وبعض القروش قبل الثوره الميمونة الأولي . وكان القطن المصري أكثر قوة من غطاء الذهب المصري . وكان تاجر القطن المصري يملي ارادته ورغبته علي صناع الملابس والاقمشة في بريطانيا وغيرها . كل ذلك تغير وانتهي وأصبحنا نحكي عنه كتاريخ فقط . واذا كان زعماء

الثورة وأبواقها قد شوهوا صور باشوات مصر فان الحقيقة هي أن باشوات مصر هم بناؤها الحقيقيون وهم اصحاب نهضتها الفعليين . ولكن ما بالنا بما يزيد عن خمسين الف مليونيرا مصريا أفرزتهم ثورتا يوليو ومايو ؟ ماذا قدم هذا الطابور من مليونيرات مصر الجدد الذين هم بمقاييس الثراء والنفوذ باشوات الستينات والسبعينات والثمانينات ؟ وإن كان باشوات أول الخمسينات وما قبلها ينزوون في ركن من البيت حياء وخجلا أن يحمل لقبهم - ولو مجازا - تاجر خردة ، أو عامل سباكة ، أو تاجر حشيش وافيون ، أو تاجر سيارات متهربة من دفع الجمارك ، أو تاجر رقيق أبيض . هل بني هؤلاء المليونيرات مستشفي خيريا ؟ هل أنشأوا مصنعا وطنيا ؟ هل شرعوا في بناء مشاريع تستوعب الاف الخريجين من المعاهد الفنيه والصناعيه وكليات الهندسة والتجارة والزراعة ؟ لا ، لانهم يريدون ما قل تعبه وما كثر خيره من دم المصريين الابرياء . فانها مفارقة عجيبة أن يصبح عدد مزارع تربية الدواجن والمواشي بالالاف وفي نفس الوقت يزداد سعر كيلو الدجاج وكذلك يزداد سعر البيضة . ويوم شكى أحد النواب البرلمانيين إلي زعيم الثورة الثانيه أن ابنته لاتجد البيضه الا بصعوبه ضحك منه الزعيم واعضاء مجلس الشعب وتناولته اقلام المعية المخلصه بالتنكيت والسخريه ، وخرجت عليه رسوم الكاريكاتير واصفة اياه « بتاع البيضه » فمصر التي كانت منتجاتها من الالبان والدواجن يسيل لها لعاب الجميع ، أصبح فلاحوها اليوم يعيشون علي ما تمنحه اياهم وزارة التموين من حصة الزيت النباتي والفول مصر التي كان يرفض أهلوها دخول السمن النباتي بيوتهم يعيشون اليوم علي ذكري فاضلة من أيام زمان ما

قبل الثورة حيث كان خزين الزبد والقشدة والمسلي الطبيعي يملأ مطابخهم .
لقد أطلت الحديث معقبا علي الأخ الفاضل هيمن أحمد يونس والكاتب الكبير أحمد أبو الفتح . وما دفعني إلي ذلك الا غيرتي علي مصر وطني الغالي . فمصر هي المنار للعالم العربي والعالم الاسلامي ، ويوم يدب فيها الخور والعجز فان الخور والعجز يمتد إلي أرجاء الوطن العربي والاسلامي . لذا وجب أن يتسلح زعماء ثورتها في الماضي والحاضر والمستقبل ، بسلاح الإيمان بالله وأن يضعوا نصب أعينهم أن الله خلق الانسان ويعلم مقدراته ويعلم امكاناته . ورسولنا الكريم عليه أفضل السلام يصف جند مصر فيقول « انهم خير أجناد الأرض » وفي هذا ما يكفينا فخراً أن نعتمد علي أنفسنا وألانتبذل في طلب القروض من هناك. ففي رجال مصر الصلد والصبر والجلد كما يتبين من حديث رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، والذي لاينطق عن الهوي أن هو الا وحي يوحي ، لقد هدمت ثورتا يوليو ومايو الانسان المصري ، أفقدتاه الطمأنينه إلي الحاكم وأفقدتاه كثيرا من حب الوطن ، وقلبتا قيمه رأسا علي عقب . من منا يغني لمصر كما غنى لها سيد درويش ؟ هل بيننا زعماء مثل مصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس ؟ هل من المصرين ، حاليا رجال اعمال واقتصاد مثل طلعت حرب ؟ لقد بلغت ساعات العمل لدي العامل المصري حسب آخر الاحصاءات نصف ساعه يوميا فقط . الأرض هي الأرض ، والسماء هي السماء . والنيل هو النيل ، والشمس تشرق وتغرب كما كانت تشرق وتغرب علي من صنعوا مصر في السابق . ولكن الذي تغير هو الأنفس ، وأن الله لايغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم (سورة

الرعد) وذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها علي قوم حتي يغيروا ما بأنفسهم (سورة الانفال ٥٣) وأنه قد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (الروم ٤١) ففي مصر وفي غيرها من أوطان عالمنا العربي والمسلم نحن بحاجة إلي اعادة بناء فكري وثقافي حتي ندرك ما فاتنا ، وحتي نصلح ما هدمت أيدي الذين سبقونا .

وخلاصة القول أنه اذا كانت ثورتا يوليو ومايو قد سعيتا إلي القضاء علي مظاهر فساد حلت بمصر أيام فاروق . أو في اعقاب عهد عبد الناصر ، فانهما قد أتيا بفوضى لاحدلها ولايستطيع أحد التنبوء بمضار تلك الفوضى ، فهي عامة وشاملة ومتغلغلة في الاقتصاد والسياسة والمجتمع . وأخطر ما برزت فيه تلك الفوضى ، أنها برزت في الفكر المصري والثقافة المصرية ، ومنهما انتشرت الفوضي الفكرية والثقافية إلي كثير من البلدان العربيه والاسلامية ، وذلك لما للدور المصري من تأثير قوي إعلاميا وثقافيا وفكريا وسيكون هذا حديثا لاحقا أن شاء الله .

١١/١/١٩٨٧م

٧ ـ فوضى الثقافة : أسبابها ونتائجها

انتهينا فى الحديث السابق إلى أن ثورتى يوليو لعام ١٩٥٢ ومايو لعام ١٩٧١ قد أفسدتا كثيرا من مصادر الثقافة العذبه للإنسان المصرى ، وبالتالى للإنسان العربى ، لما لمصر من مكانه فى نفوس العرب والمسلمين قاطبه . وقد اتيتا بفوضى ثقافيه وفكريه لا ندرى متى يهدأ تلاطم أمواجها الجارفه ، ومتى يتوقف سيلها العرم الذى ظهر وسيستمر ظهوره لفترات طوال .

فنحن نعيش واقعا بلا اخلاق [محمد قطب ، واقعنا المعاصر (دار المدينة للنشر ، ط ١٩٨٧) ص ١٧٦] لاننا نزلنا من « القمم السامقه الى الهوات السحيقه » بتخلينا عن « إخلاق العرب والمسلمين اينما كانوا، التخلى عن اخلاق الإسلام فى المعاملات والقيادات . فحين يصف زعيم عربى مسلم لحية شيخ وقور بأنها « كالمكنسة » وحين يتحدث خليفته عن شيخ آخر له نفس الوقار بعد مازج به الزبانية فى غياهب السجون على انه « كالكلب » فهذا يعنى أنه لا اخلاق اصلا لدى هاتين القيادتين ناهيك عن الجدال فى كون اخلاقهما اسلامية أو مجوسيه .

والشعوب بحكامها وسادتها [ابن خلدون المقدمة ـ بيروت ، دار ومكتبة الهلال ، ط ١٩٨٦) ص ١٠٢] يميلون الى التقليد . فيتشبهون بما لدى القادة من أقوال وأفعال ، ومن ثم فلا غرابة أن تسبغ تلك الصفات السيئة بالطبع على الوزراء ومعاونى الوزراء ، ومستشاريهم وحتى أصغر موظف، فى أقصى نجع وقرية ، ولولا استمراء هؤلاء الوزراء – فى أى

بلد - للإخلاق السيئة لحكامهم لما بقوا فى الحكم ، الا اننا نجزم انهم على ثقافة عالية ، ويحملون درجات من جامعات لها قدمها ورسوخها ، ولكنهم عموا، ولذا يغشى على أبصارهم كلما تحدث ذلك الزعيم أو الحاكم : فلدى الانصات اليه تتعطل ملكات التفكير ، وتتبدل قواعد المنطق والجدل ، وتنمحى أصول التدبر والحكمة . فينقلب الحق باطلا ، ويصير الظلم أساسا للعدل بين الناس . وهذا هومصدر الفوضى فى الفكر والثقافة . فما من وسيلة لهؤلاء الزعماء لاقناعنا بأباطيلهم سوى اللغة ومخاطبة الاذهان . فتصبح اللغة مركبا مبحرا فى خضم الفوضى وتصبح ايضا سيفاً مشرعا فى وجه كل معترض أو مناوىء . ومن حروف اللغة تلقى الخطب الرنانه ، والاحاديث المبهرة ، وتؤلف القصص والمسرحيات والتمثيليات ، ومن حرونها أيضا تخرج الاناشيد المؤيده ، والاغانى التى تفيض فرحا بما أقدم عليه وجوه القوم مساء صباح ويسير الشعب فى الركب إلى منتهاه لاحول له ولاقوة . فالسبيل امامه مغلق وليس ايسر له من ان يقبل تلك الجرعات من التفه والسفه طالما أحس انها لن تؤذيه فى لقمة عيشه ورزقه ، ومن هنا يدخل السفهاء الى القلوب فيصبح الواحد منهم معبودا ، وتصبح الواحده منهم معبوده من الجماهير . فيكون المثل الاعلى لجمهور الشباب فلانا المغنى أو فلانا الممثل . والعلم ثابت لدى الجميع . ان هذه الفئة انما تعيش فى الخبث والرذيله وما نبت لها فرع او غصن الا من حرمه انتهكت أو عرض أعتدى عليه ولذا كانت ولاية السفهاء سببا فى الفوضى الثقافية التى نعيشها حاليا [محمد الغزالى . خلق المسلم (دمشق ، دار القلم ، ط ١٩٨٦) ص ٣٤] : وحين اقدم الرئيس المؤمن على تكريم كبار

الفنانين ومنحهم الدكتوراه الفخريه ، فانما كان يأثم فى حق نفسه وحق شعبه وكان إلى جانب ذلك يعطى صفة الشرعيه لعمل مؤداه افساد اخلاق الشعب المصرى وتذويب صفته المسلمه التى جبل عليها . فكان عيد الفن فى الثامن من أكتوبر لكل عام يتقابل فيه كل من سعى الى هدم وتخريب مصرنا الغاليه ، وتوجت تلك الأعياد بانشاء نقابة الفنانين لتأخذ صفة الشرعية والرسمية تماما كنقابة الأطباء أو المهندسين أو المحامين أو المعلمّين ويحسب لها الف حساب أمام صناع القرار السياسى .

لقد كان الغناء بأنواعه من الرجال أو النساء ، أطفالا أو كبارا ، سببا فى التراخى الخلقى الذى نعيشه اليوم وسيعيشه أبناؤنا فيما بعد . ويكون الأمر مقبولا لو اقتصر الغناء على مجرع ما يصدر من زفرات الحب وآهات الشوق التى يتجشؤها ذلك الساقط أو تلك الساقطة أمام الميكرفون أو على شاشة التليفزيون لكن الأمر تعدى ذلك إلى غناء القرآن . فقد غنت أم كلثوم بصوتها القرآن الكريم واذاعته اذاعة القاهرة علينا دون ادنى مبالاة، أو اكتراث لما يحدث . فصوت المرأه عورة ولذا فانه لا يعلو ولا يرتفع فى الصلاة ، حتى وان اخطأ الامام فان المرأة لا تقول سبحان الله كما يقول الرجال ، لكنها تصفح بيديها فقط (أى تضرب صفحة يدها اليمنى بظهر يدها اليسرى) ، لقول الرسول الكريم « التسبيح للرجال والتصفيح للنساء» . فكيف بنا نسمعها ونراها تغنى على العود كتاب الله المنزل ، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ كيف بنا نرى كتاب الله وقد وضع فى وسط الدنس ، فأصبح فى مستنقع الرذيلة ، ما بين صوت المرأة وصوت العود وعيون الرجال تطالع امرأة حراما عليهم ؟ كيف بنا

نرى ذلك ونسكت ؟.

لقد سكت الناس وقتها ، ومر الأمر دون مبالاة ودون ادنى اهتمام ، بل ان الكثيرين اقتنوا تلك الاشرطه واعتبروها من التسجيلات النادرة التى يتنافس البعض على اقتنائها . ولكن نتيجة ذلك ظهرت فيما بعد فى وقتنا الحالى . فقد أصبح قارىء القرآن خاشع الصوت مكروها ممقوتا ، ويحب الناس بدلا منه القارىء الذى يغنى ويتأوه ويهلل ويكبر إبان القراءة، لا لشىء الا انه يقلد (الست) ، وسرى ذلك المفهوم سريان الوباء فى الشعوب العربية والإسلامية ، فأينما ذهبت لا تجد اقبالا على أصوات المقرئين الخاشعين أمثال المرومين الشيخين محمد رفعت ومحمود الحصرى ، لكنهم يقبلون على أصوات أخرى نعرفها جيدا ، ولا داعى لذكرها هنا تجنباً للوقوع فى سوء الفهم . المؤمن يبتلى دوما فى دينه ، وما مر بالقرآن وبنا انما هو امتحان هل نثبت بعده أم نتخلى عن ديننا .

ولقد كان للقصة والمسرح والشعر دور لا بأس به فى توفير وسط طيب لافساد أخلاق المسلمين مصريين داخل الحدود وعربا خارج الحدود . فقد تصادف أو اتفق - لا ندرى - ان يكون معظم كتاب القصه والمسرح والشعر فى مصر من ذوى الثقافات الغربيه التى تدعى التنور والتحضر ، ولذا أتوا فى قصصهم بالكثير والكثير من عادات أهل التنور والتحضر . فالمصافحة بين الرجال عادة غير طيبة ينبغى القضاء عليها لعدم نقل الأمراض بينهم ، أما بين الرجال والنساء فالمصافحة والعناق لا ينقلا سوى المحبة والمودة . هذا هو مفهوم المصافحة الحديث لدى هؤلاء الكتاب الذين لايرعون فى مؤمن إلاً ولا ذمة . والمسلمون رجالا مأمورون بالتصافح

عقب كل صلاة وعند كل لقاء ، لربط وشائج الاخوة ، وتدعيم أواصر المحبة الحقه بين المسلم وأخيه المسلم ، وكذلك هى مطلوبة بين المسلمة واختها المسلمة . وقد عاش المسلمون يتصافح رجالهم مع بعضهم البعض وكذلك عاشت المسلمات يتصافح نساؤهن مع بعضهن البعض حوالى ثلاثة عشر قرنا من الزمان ولم نسمع قط أن المصافحة كانت سبباً لنقل مرض أو وباء بينهم أو بينهن . مع فارق كبير هو ان البيئة العربية والإسلامية فى الماضى كانت لا تحظى بالقدر الحالى من الرعاية الصحية الأولية والتعقيم والاحتياطات الوقائية الاخرى التى تقضى على الاوبئة التى نسمع عنها الآن .

اما ان يصافح الرجلُ الأجنبية عليه فهذا عين السخف وعين الفجور ، ولا نقبله . وهو ان دل على شىء فانما يدل على ما يتردى فيه هؤلاء الكتاب من بيئات لا ترعى الخلق والمبادىء وهذا هو الثابت من دراسة سيرهم الذاتيه أو تاريخ حياتهم أو كما يصرحون بين الفينه والأخرى . فما منهم واحد الا ولطخت حياة أمه أو أبيه أو أخيه أو أخته أو حياته هو شخصيا بخلل اخلاقى لا يمكن التجاوز عنه على انه هفوة أو نزوة . ويشاء الله ان يبقى ذلك الخلل مع اى منهم ابدا . فمنهم مدمن الخمر ، ومنهم مدمن المخدر ، ومنهم مدمن الساقطات ، ومنهم مدمن اللواط ومن يتسلل الى خصوصيات أدعياء التحضر والتنوير هؤلاء يضع يده على الاسماء والاشخاص وتتضح له الحقيقة عارية .

واذا كان التأدب فى المجلس سمتاً حضارياً ، فان التخلى عن ذلك التأدب مدخل الى سوء الخلق ، ومن ثم سبب قوى لما نرى من فوضى

ثقافية وفكرية . فاحترام العالم والتأدب أمامه أو قبالته امر لا يجب المساس به . ويوم تخلينا عن تقبيل أيدى العلماء فقدنا الكثير . فقد كان العالم الذى يعظ الناس ويصلى فيهم هو الملجأ وهو الملاذ عند كل مصيبة، ولذا كان الواحد منا يقبل يده احتراما وتبجيلا ثم عملاً بقول رسولنا الكريم أنه من الثلاثة الذين يستحب تقبيل أيديهم (أما الاخران فهما الوالدان والطفل الصغير) . ولا انس ابدا منظر مذيعة التليفزيون المتبرجه التى كانت تستضيف عالما جليلا وتضع ساقا على ساق وقد ظهر ساقاها للمشاهدين وكانت الكاميرا لا تخجل ان تضع ساقى تلك المذيعة فى وجه الشيخ الجليل . وبالطبع يجب ان نستنكر خلوة ذلك العالم بتلك المذيعه ، وان كانت خلوه غير كاملة لوجود فريق من المصورين والمخرجين وبقية الفنيين ، ولكنا نستنكر أيضا ان يقبل ذلك الشيخ جلوس امرأه امامه وقد تكشفت مفاتنها وهو يعلم ما للنساء مَن فتنه وخصوصا لمن يُخترن للعمل بالتليفزيونات العربية ، لكنها الفوضى فكرا وثقافة التى نعيشها وسنعانى منها أمدا .

واذا كان مد الساقين ، أمام من هم أكبر منزلة منا فى العلم أو من هم أكبر منا سناً مظهراً فوضوياً ، فان عدم احترام الكبار عموماً قد اصبح مظهراً عاماً . انظر إلى الشارع العام ، قائد السيارة لايبالى إن مر أمامه شيخ كبير أو امرأة عجوز ، واذا اهتم أو اكترث بعض الشىء فذلك لعلمه بما يفرضه حكم القتل الخطأ من دية كبيره اذا كانت الدولة تحكم بشرع الله. اما اذا كانت الدية ضئيلة القيمة لأن الدولة لا تحكم بشرع الله فان حوادث الدهس تصل إلى المئات سنويا ، فلا قيمة للإنسان ومن ثم فقد

رخص لهؤلاء السائقين ان يقتلوا ما شاءوا وكيفما شاؤا ..

والأخ الصغير لايحترم الأخ الكبير مشهد يتكرر فى كل بيت هو مظهر من مظاهر الفوضى الأخلاقية أولاً نتج عنها فوضى ثقافية ثانياً . فكيف يمكن ان يصغى الولد الصغير لنصائح أخيه الكبير فى موقف ما ؟ ونفس الاخ الصغير سيكون يوما ما طبيبا أو مهندسا أو صانعا ، ومن ثم فانه لن ينصت ولن يصغى الى من سبقوه فى اعتراك تلك الميادين ، ومن ثم فانه ينفذ ما يتبادر الى ذهنه من أفكار وآراء فجه . ولذلك فقد انعدمت الخبرة والحنكه لدى كثير من أطبائنا ومهندسينا وصناعنا وأصبحنا نلجأ الى الأوروبيين والآسيويين الذين هم أقل منا ذكاء حسب دراسات واحصاءات العلماء العرب وغير العرب . ولكنهم تفوقوا علينا بطاعة أولى الرأى والخبرة فى مجال أعمالهم . وعليه فقد انتشرت مكاتب تقديم الخبرة والدور الاستشارية الاوروبية والأمريكية فى البلاد العربية والإسلامية ، رغم انهم لا يقدمون سوى الرأى ولا يعطون سوى القليل من أسرار خبرتهم، وهذا فى حد ذاته مظهر فوضوى مؤسف . فمكاتب الخبرة والاستشارة تلك تعلمنا وتعلم القائمين على أمرنا ماذا يقولون وماذا يفعلون حسب مواصفات أوروبا وأمريكا لا حسب مواصفات المنطقة العربية أو الإسلامية. فلا غرابة ان نجد منشأة صناعيه أو زراعيه أو صحيه أو علميه تدار على النمط الامريكى مثلا فى وسط بلد مسلم لا نشك فى إيمان زعمائه ، حتى ان اللغة الرسميه المستخدمة فى تلك المنشأة تكون الانجليزية بدلا من العربية . وبعد ذلك نعانى الأمرين ونشتكى الى الله سوء قدرنا ، وقد جلبنا على أنفسنا كل تلك الويلات بعدم طاعتنا

لأولى الأمر منا ، وبمعصية علمائنا ومشايخنا . ومما يرثى له ان بيوت الخبره والاستشارة تلك ما هى الا أعين مفتوحه علينا تعمل لصالح بلادها، فلا هم لها الا ان تعرف خفايا أمورنا وصدورنا ومكنونات أنفسنا تنقلها إلى بلادها وإلى حكامها حتى يكيدوا لنا ويضربونا فى كل مقتل ، وتبقينا دوما فى ركابها وفلكها .

وان من مظاهر الفوضى الثقافية أيضا انقلاب الكثير من المظاهر الحياتيه اليوميه الى نقيضها فالابتسامة انقلبت ضحكة عاليه وقهقهه ، والحديث الأخوى هادىء الصوت تحول إلى صراخ وعويل حتى ليبدو انه شجار وعراك . ان خفض الصوت من خلق المسلم الكامل ، وقد تركناه وهو أمر من الله ، إلى النبرة العالية حتى ان الكثيرين منا يعتقد ان الصوت العالى فقط هو سمة الرجوله وهو سمت الشجاعة . نعم ان الابتسامة مظهر ثقافى والحديث الهادىء مظهر حضارى آخر . فكلاهما لايقدر على اى منهما سوى انسان رابط الجأش ثابت العزم قوى الإيمان . ومن كان هكذا كان تكوينه الثقافى سليما متينا ، فهو ليس فى حاجة ان يضحك مقهقها ليتشبه بالغوغاء فينال رضاهم ، أو ينافق واحدا منهم . وكذلك هو ليس بحاجة لان يرفع صوته ، فالصوت الهادىء يقنع بالحجة والوسيلة ، اما الصراخ فانه يخيف للحظة عابرة فقط ، ويذهب بعدها جفاء . ولايعدم صاحب الصوت الهادىء ان يشدك اليه ، اما صاحب الصوت العالى فانه منفر .

وليت ان أمر الفوضى توقف عند هذه الامور فقط . ان الفوضى الثقافية واصلت سيرها حتى وصلت الى عربيتنا المعاصرة ، فجعلتها

مترهلة متثاقله رغم كل ما يبذل من جهود مجمعية للنهوض بها . وانظر مثلا إلى استخدام الصفات واستخدام الأحوال لدى كتابنا . وانظر إلى ركاكة أسلوب الكثير من المعاملات الرسمية ، وانظر إلى الكثير من الخطب التى يلقيها زعماؤنا والذين يستخدمون فيها العاميات المحلية مما يجعل لغة شعب ما ثقيلة ومرهقة لدى شعب آخر . ان أرهاق اللغة العربية بالمحليات من المفردات والتراكيب انما هو عودة الى جاهلية ما قبل الإسلام حين كانت لكل قبيلة مفرداتها وتراكيبها ، وان قولة « دافئوا القوم » خير دليل على ذلك . فحين قالها خالد بن الوليد لجنده ويقصد بها تدفئة الأسرى من معسكر الاعداء ، فهمها الجند بلغتهم المحليه وقتئذ على انها القتل ، فقتلوا الأسرى ووقع خالد فى مأزق مع الفاروق عمر رضى الله عنهما . وكادت اللغة العربيه ان تؤول مآل اللغة اللاتينية وتتفرع الى لغات حسب مواطن متكلميها ، ولكن جاء القرآن فجعلها لسان صدق ، وجعلها لسان حق ، وخلق بها الله سبحانه وتعالى شعباً عربيا واسلاميا واحدا . فأسبغ علينا القرآن صفة العروبة حين نزل بلغتنا والا كنا شيئا آخر لو لم ينزل القرآن بهذه الأبجدية المباركة [مصطفى صادق الرافعى ، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية (بيروت ، دار الكتاب العربى« ، ط ١٩٧٣ م) ص ٨٢ - ٩٢] .

وإلى جانب ترهل اللغة العربية المعاصرة ، وما دب فيها من ضعف وركاكة ، فقد أهمل الخط العربى وأهملت جوانب تحسينه والاهتمام به ، وبالكاد تجد مدرسة أو مدرستين فى كل بلد عربى لتحسين الخطوط وذلك لاعتمادنا على آلات الطباعة والكتابة الحديثه [جلال أمين صالح ، ألبانى

فى الخط الديوانى] (الطائف ، المصيف ، ط ١٩٨٧ م ص ٥] التى هدمت جمال الخط العربى وأزهقت روح الإعراب من نصب وضم وجر الى ما غير رجعة ، وتستمر المطابع الحديثة لتقضى بما تبتكر من حروف صممت فى أوروبا وأمريكا على البقية الباقية من جمال لغتنا . فنرى بعض المطابع تقدم السطور العربية مائله إلى الشمال أو مائله إلى اليمين تشبهاً بأسرة اللغات اللاتينية . ونرى مطابع أخرى تقدم أحرفا مبتدعة كل هدفها هو تضبيع وتعويم المنطق السليم للالفاظ والكلمات العربية . وما أحب أصحاب المطابع تلك الحروف والانماط الكتابيه الا لسهولة استخدامها ، وأيضا وهذا هو الأهم أنه لا يوجد لدينا عدد كاف من الخطاطين المهرة يستخدمون التقنيات الحديثة فيطوعونها لخدمة الخط العربى ولغتنا العربية فى وقتنا الحالى .

كما أن الاغتراب الثقافى الذى نتج عن السعى الدؤوب لكتابنا المتشبهين بالغرب فى كل شىء مظهر فوضوى آخر . فقد جعلوا شبابنا يكره كل ما كتب السلف فى الدين أو غير الدين وأبدلوا كل الكتاب العرب والمسلمين بشخوص وأسماء جديدة كأن تسمى « كتب الورق الاصفر » ، أو « كتب التراث » والذى يقصد بهما انها كتب عفى عليها الزمن ولم نعد فى حاجة اليها ، فى حين انها أمهات العلوم ومصدرها الأقوى مهما تقول عليها المغرضون والمفندون ، فصاحب ذلك التغريب الثقافى والاغتراب الفكرى فوضى فكرية نعانيها فى طرق التدريس والتعليم . فالمبتعثون الى الخارج للحصول على الدرجات العلمية يعودون بأفكارهم التى تعلموها فى البيئات الأجنبية ويطبقونها على بيئاتنا العربية

المسلمة كما هى دون محاولة تذكر لتطوير تلك الأفكار والنماذج بما يتمشى وحاجة بيئتنا ، وذلك ادراكا ويقينا منهم ان العرب لم يصنعوا أسسا لأى شىء ، وان علماء المسلمين جميعا قد كانوا صفر اليدين فى كل مجال . وهذه ابشع صورة نرى فيها الاغتراب الثقافى فى أوساطنا العربية والإسلامية .

ولقد كان اهمال تعلم اللغات الأجنبية تتويجا لمظاهر الفوضى الثقافية التى نعيشها . فقد بليت طرق تدريس اللغات الأجنبية وتدهورت المعايير التى نقيس بها كفاءة مدرس اللغات الأجنبية . فبعد أن كان المرشح للدخول الى كلية المعلمين يجتاز اختبارات قاسيه جداً فى اللغة الأجنبية والعربية والثقافة العامة ، أصبح الطالب المرشح لدخول قسم اللغة الأنجليزية - مثلا - من الحاصلين على خمسين بالمئه فقط فى مادة اللغة الأنجليزية فى الثانوية العامة . ذلك الى جانب المشاكل التى تعانى منها جامعاتنا كنقص أعضاء هيئة التدريس الذى لايقل فى أحسن الأحوال عن ثلاثة أرباع ، ونقص الأمكانات المادية وعجز معظم أقسام اللغات عن توفير الكتب والمراجع والدوريات والصحف التى هى وسائل طبيعية لتعليم اللغات الأجنبية . ولذا قل عدد متكلمى اللغات غير العربية ، واذا وجد من يتكلمها فان درجة اتقانها تكون أقل من المطلوب . وينعكس ذلك فى إعتماد الكثيرين من القائمين على الهيئات الرسميه على الترجمة والمترجمين فى حين يفترض فيهم اتقان اللغات الأجنبية التى هى وسط عملهم .

وبعد ، فأننا نعرف أسباب الفوضى ونتائجها ، ونعرف جيدا أننا قد

أخطأنا فى حق أنفسنا وأسأنا إلى السلف الصالح الذين خدموا الإسلام وما إرادوا سوى علو شأنه ورفعة همته .

ان الاقلام لا تكل ولا تمل الكتابة فى هذه القضية ، وطالما تحدث العلماء الاجلاء عن تخلينا عن أخلاق الإسلام فوصلنا نتيجة ذلك إلى ما نحن فيه من تأخر وتخلف ، وغرقنا فى الديون والقروض واعتمدنا كلية أو نكاد على الأجانب فى كل كبيرة وصغيرة .

والتغيير لايكون اكراها ولكنه بخطاب القلب (محمد الغزالى ، خلق المسلم ، ص ٣١) وهو ليس قسراً فيأتى معه الظلم ويأتى معه القول الخاطىء انه يمكن التضحيه بعدد من الأفراد لإنقاذ جيل كامل ، أو أن نضحى بجيل كامل من أجل انقاذ أمة . فذلك قول لا يقبله الإسلام فما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطئا . اما أن يقتل المسلمون أخوانهم من أجل التغيير أو التبديل فذلك حرام حسب نص القرآن . انما التغيير يكون بالحديث الى العقول والقلوب فى آن واحد . لايكفى منطقة الأمور فقط ، ولكن يجب ان يكون الوعظ والارشاد مما يلمس شغاف القلب ويهزها فتهتز فتنمو وتربو بعد أن كانت جامدة هامدة . ساعتئذ نعود الى أصولنا الثقافية العذبه ، فننهل منها ونكمل مسيرة السلف . واذا كنا قد توقفنا عن الانتاج قرنا أو قرنين من الزمن فتلك سحابة صيف فى عمر الشعوب، أو هى كبوة لابد ان ينهض بعدها الخيل المسلم ليعود فيواصل السير فى حلبة الشعوب التى ترفع شعارا لا نحب أن نرفعه وهو ان البقاء للأصلح ، ونزيد عليه والبقاء للأقوى والأكثر تماسكا . وفى الإسلام «الاصلح » و « الأقوى » و « الأكثر تماسكا » وهو لا محالة للمؤمن

القوى الذى يرعى الله ويتوخى سنة رسوله فى كل كبيرة وصغيرة . ولنتذكر دائما قوله تعالى فيمن لم يحكم بما أنزل الله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الكافرون » (المائده ٤٤) . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فاؤلئك هم الظالمون » (المائدة ٤٥) « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (المائدة ٤٧) .

ولا نستطيع كمسلمين أن نفصل بين ثقافتنا ودیننا ، فالمسلم المثقف هو الذى يأخذ ثقافته من الكتاب والسنة ، ليكونا بمثابة معمل تكرير لما يرد عليه بعد ذلك من علوم دنيويه حديثه أو مذاهب تحاول ابتلاع كل ما عداها. فمن الكتاب والسنة وبالكتاب والسنة نستطيع التمييز بين الطيب والخبيث وعن طريقهما فقط نختار فنوفق فى الاختيار ، وبدونهما نختار فنخطىء الاختيار . واذا اخطأنا الإختيار سيضحك علينا ومنا الجميع غربا وشرقا . فالغرب والشرق يعرفان من هم أجداد المسلمين اليوم ، يعرفون ذلك المسلم الذى يشق طريقه فى ظلمة الليل ليصل إلى هدفه ، ويعرفونه وهو يشق طريقه تحت لهيب الشمس ليصل إلى نفس الهدف دون كلل أو ملل . ويرونا هكذا قاعدين هامدين نتخبط فى أتباع مللهم ونحلهم التى يعرفون جيداً أن كلها خبث ومكر وخداع وما وضعت الا لاصطياد الضعفاء الذين أصيبوا بالتشويش الفكرى وأصابتهم العتمه الثقافية .

٢١ / ٦ / ١٩٨٧ م

٨ ـ حضارتنا عربية أم إسلامية (×)

حديث اليوم قد يثير حفيظة كثير من الأطباء العرب ، والكيميائيين العرب ، والفيزيائيين العرب ، وعلماء البيولوجيا العرب ، ومهندسى الانشاءات والكهرباء والطرق والرصف من العرب . وهو كذلك سيثير حفيظة الصيادلة العرب . ومهندسى الكمبيوتر ، وسيثير حفيظة كل من يقوم بتشغيل أو صيانة أى من الأجهزة التى اخترعتها يد الإنسان فى عصرنا المتطور المتقدم . حديث اليوم سيثير حفيظة كل هؤلاء ضد المؤرخ الفذ العلامة عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) صاحب المقدمة ، ذلك أنه قرر فى غير تردد عجز العقلية العربية عن قبولها « للعلم » وهو يقصد بالعلم هنا ، بمصطلحاتنا الحديثة « علوم التنقية » من هندسة وصيدلة وطب وزراعة وما شابه ذلك ، وهو يقصد بمصطلحاتنا القديمة « العلوم الشرعية » أيضا » .

يقول بن خلدون « من القريب الواقع ان حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى والسبب فى ذلك ان الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة [ابن خلدون ، المقدمة (بيروت ، مكتبة الهلال ، ط ١٨٦) ، ص ٣٣٧] ويستطرد بن خلدون بعد ذلك ليقول ان الدعـوة الإسـلامية فى

(×) نشرت فى جريدة الشرق الأوسط ، العدد رقم ٣٣٧٩ بتاريخ ٢٨/ ٢/ ١٩٨٨ م

أول امرها كانت تعتمد على « الحفاظ » لبقاء تراثها من قرآن حديث وسنة ، الا أن ذلك الأمر لايستمر طويلا « فاحتاج التراث الإسلامى الى علوم الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس ، ويقرر ان هذه «الصنائع من منتحل الحضر وان العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم فى معناهم من الموالى وأهل الحضر » ، كذلك أن العرب «يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر اليها » (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٨) ولا ينكر بن خلدون فضل الإسلام على العلماء المولدين أو العجم الذين دخلوا الإسلام فنطقوا بلغته وكتبوا وبرعوا فى علومه .

الا أن بن خلدون بحكمه السابق يحجر على العقلية العربية ويجعلها لا تلم بشىء ولا تقدر ان تتعلم شيئاً » من تلك العلوم الشرعية بداية ، ثم من العلوم الأخرى كالطب والصيدلة والفيزياء والهندسة . ولقد وقع بن خلدون فى خطأ فادح وهو الخوض فى مسألة الشعوبية التى سادت وقته . ومن ثم أخذ يميز بين العرب والعجم ، وكان أحرى به ان يتحدث عن الحضارة الإسلامية كحضارة صنعها المسلمون دون البحث المضنى فى أصول هؤلاء المسلمين : أهم من العرب ؟ أم من العجم ؟ أم من المولدين ؟ « أما وقد سوى الإسلام بين الناس كافة ، وقضى على العرقية والمفاضلة بالأحساب والأنساب بين الناس ، وجعل الفضل لصاحب الفضل أيا كان نسبه أو عرقه أو لونه ، فان فلسفة التوحيد التى جاء بها الإسلام كانت فى حد ذاتها ذات أثر خطير فى تحرير الإنسان ، كل الإنسان من الخوف والجبن والطغاة والظلمة وأصحاب النفوذ وأرباب المال تحريرا كاملا » ، انه تحرر فى القول والعمل والفكر والطعام واللباس والتحرك ولكن فى نطاق الالتزام بروح الإسلام . ومن هنا كان قول أحد الرعية لعمر تعليقاً على

خطاب له والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا .[دكتور مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة الإسلامية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ع ، ١٩٨٢ م) ، ص ٣١] ومن ثم فانه لا حجة لادعاء بن خلدون بعد ذلك لما بناه من استنتاجات وما خلص اليه من نتائج حول التقليل من شأن العقلية العربية ، وعجزها عن تحمل عبئة العلوم العقلية والشرعية .

صحيح ان الإسلام قد جاء « وليس فى قريش - وهى أكثر القبائل تمدنا » - غير سبعة عشر فرداً يكتبون ، وهم على وجه التحديد : عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، وابو عبيدة ، وأبو طلحة ، وأبو سفيان بن حرب ، ويزيد ومعاوية ابناه ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وحاطب بن عمرو ، وأبو سلمة المخزومى ، وأبان بن سعيد بن العاص وأخوه خالد وعبد الله بن سعيد بن أبى سرح العامرى ، وحويطب بن عبد العزى العامرى ، وجهيم بن الصلت ، وعثمان بن عفان . ومن النساء الكاتبات كانت حفصة وأم كلثوم من أمهات المؤمنين ، كما كانت عائشة وأم سلمه تقرآن المصحف ولا تكتبان . تلك كانت الشخصيات الكاتبة والقارئة فى أكثر المجتمعات العربية أهمية قبل الإسلام وهو المجتمع المكى » . [دكتور مصطفى الشكعه ، مناهج التأليف عند العلماء العرب - قسم الادب (بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ع ، ١٩٨٢ م) . ص ٢٧] .

هذا العدد القليل من المتعلمين أو المثقفين الذين بدأ بهم الإسلام دعوته، وإن لم يسلم كل ذلك العدد دفعة واحدة ، كلف الرسول - عليه أفضل السلام - ثلاثة عشر عاما قضاها فى مكة يعلم أصحابه أصول دعوته ، ويفقههم فى الدين وفى الحياة . كان عليه السلام يدرك أن البناء الفكرى لصحابته هو أساس نجاح الدعوة التى انطلقت على يد مئتين من ذلك الجيل الفريد الذين تربوا فى مدرسة البشير النذير عليه السلام .

بعد ذلك ، بوقت ليس طويلا بدأ العرب يتعلمون الكتابة والقراءة ، وانتشر الوعى بينهم ليس لكونهم عربا ، ولكن لصفتهم الجديدة وهى أنهم مسلمون . فلقد كانت اللغة العربية وقت نزول الرسالة الإسلامية فى مفترق طريق ، وكادت كل قبيلة تنفرد بلغة تغرق فى محلية مفرادتها حتى أن قبيلة أخرى مجاورة لها لا تستطيع ان تفهمها . وحين نزل القرآن الكريم حفظ لتلك اللغة صفتها الخالدة ، وذلك ان الرسالة والذكر نزلا بها لقوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (سورة الحجر ٩) والأحرى ان تسمى تلك اللغة لغة الإسلام ، أو اللغة الإسلامية كما يذهب الى ذلك سيد قطب رحمه الله عليه فى ظلال القرآن . فاللغة العربية موجودة لدى أهل الجزيرة ومتكلميها منذ آلاف السنين قبل الإسلام ، ولم تنتشر ولم تخرج من نطاقها فى مكة وما جاورها . ولكن حين جاء الإسلام أعطيت العربية دفعة قوية وتحولت السنة البلاد المفتوحة اليها ، حتى أن بلداً كمصر القبطية أصبحت بعد أربعة قرون من فتحها تتكلم اللغة العربية مع أن « عدد الجنود الاصليين الذين جاءوا مع عمرو بن العاص فى فتح مصر كان صغيرا » ، الا أن تعريب مصر تعريبا كاملا تم بسرعة مدهشة وفى زمن قصير . فى القرن الثامن أصبحت اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وبالتالى فقد أصبحت لغة المعرفة والعلوم وحلت محل اليونانية ، ومع مجيىء القرن الحادى عشر كانت اللغة العربية قد أصبحت لغة عامة سكان مصر ، بينما تراجعت اللغة القبطية إلى الاديرة . ومع أن صلوات الكنائس كانت لاتزال تتلى وترتل باللسان القبطى القديم فان المواعظ أصبحت الآن باللغة العربية . ومما يلفت النظر حقيقة ان الحكم والحضارة الرومانية والهلنستية حكمت مصر أكثر من الف سنة غير انها لم تستطع أن تنفذ الى صميم الشعب المصرى - بينما لم تكد تمضى أكثر من أربعة

قرون بعد الفتح العربى حتى اصبحت مصر عربية فى كل شيء [محمد حسنين هيكل ، خريف الغضب (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ط ١٣ ، ١٩٨٦) ، ص ٣١٥ - ٣١٦] فلقد كان الإسلام بصدق وبحق هو الوعاء الذى حفظ اللغة العربية من الضياع والتشتت ، والا فإنها تؤول مآل الهيروغليفية [مصطفى صادق الرافعى ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (بيروت ، دار الكتاب العربى ، ط ٩ ، ١٩٧٣ م) ص ٨٠] ولآلت مآل اللغتين اللاتينية واليونانية من تشتت وتفرع وترك وإهمال .

وهكذا أصبحت اللغة العربية ، واصبح كتابها وحملة علومها هم قادة التنوير الفكرى فى البلاد المفتوحة ، فعلى أيديهم تفتحت ملكات الابداع والتأليف والابتكار لدى من يسميهم ابن خلدون بأهل الحضر من العجم وغيرهم . لقد كان لابد للمسلمين فى البلاد الجديدة المفتوحة من معلمين ومرشدين فكان طبيعيا أن يتفرق الصحابة فى الأمصار معلمين ومرشدين ومثقفين ، وكان عمر حينما يبعث صحابياً الى بلد ما فإنه كان يزوده بخطاب يقدمه به إلى الناس الذين ربما وجدت كثرة بينهم لا تعرف قدره . وكان هذا الخطاب من الخليفة بمثابة تقديم وتكريم للصحابى المبعوث ، فحينما بعث عمر عبد الله بن مسعود الى الكوفة ، وهو من خيرة الصحابة علماً وفضلاً ، بعث الخليفة الى أهل الكوفة يقول لهم : انى بعثت اليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وآثرتكم به على نفسى فخذوا عنه . (د . مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف ، ص ٢١) .

كانت تلك الرسالة كافية وكما يستطرد الدكتور الشكعة « لا تكمن فى تكريم بن مسعود بقدر ماتهدف الى تكريم العلم نفسه ، أما وان عبد الله بن مسعود من العلماء فهو لعلمه وفضله جدير بالاجلال والتكريم »

(نفس المرجع السابق والصفحة) . وقد استطردت حملة ارسال العلماء إلى الامصار حتى نشأت بعد جيليين أو ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم الحركة العلمية الإسلامية ، التى لا يجرؤ احد ان يقول انها حركة علمية عربية . نعم لقد كانت اسلامية بكل المقاييس ، فالجذور اسلامية منذ البداية وهى انه للتمكين لدولة الإسلام لابد من العلم ، ومن ثم دأب الخلفاء كما رأينا على نشر العلم الذى لا ينحصر فى علوم القرآن والحديث والعلوم الشرعية فقط ، فتلك أول الأوليات ، ولكن شمل إلى جانب ذلك ما يمكن تسميته من علوم حياتية كالطب والصيدلة والهندسة والزراعة وعلوم البحر وغيرها . وكان رجال العلم مسلمين دون النظر الى أصولهم العرقية أو الجنسية . كان العلماء الذين يرجعون إلي أصل أعجمى رجالاً أفذاذاً ، وذلك بفضل الإسلام عليهم . ولاندرى هل كانوا ينبغون فى تلك العلوم لو بقوا على ما هم عليه من عبادة زرادشت أو عبادة النيران أو عبادة الابقار . لقد اغفل بن خلدون هذه المسألة تماما ، ونسى أن الإسلام ليس عبادة فقط ، لكنه سبيل حياة ، فكم شقت مسألة على العلماء وتوقف تفكيرهم عن الاتيان بحل لها ، حتى يلجأ الواحد منهم إلى التنفل بركعتين لله فيكون بعدها الحل الأكيد والناجع . نسى بن خلدون وهو عربى حضرمى ان الإسلام هو الذى بث فى عقول العجم وفى أرواحهم قيمتهم كبشر ، والا لبقوا على سابق عهدهم من ولاء لسابق اعتقاداتهم وسابق تراثهم ، الا أن التاريخ يقول ان دخول هؤلاء العجم وأهل الحضر فى الإسلام كان فى قليل منه خوفا من حد السيف ، وذلك ان السيف عاد الى غمده وظهر بدلا منه فى فترة لاحقة صوت القرآن الذى خاطب العقل وخاطب العاطفة ، وهذا هو السبب فى ارسال الخليفة عمر ومن تبعه من الخلفاء العلماء والفقهاء لتعليم الناس وتثقيفهم . كان السيف حاضراً ،

ولكن له ميقات معين يظهر فيه . أما الكلمة فكانت هى سيدة الساحة ، كان الجدال بالتى هى أحسن شعار دولة الإسلام التى قدمت لنا العلماء العظام عرباً كانوا أو عجماً .

ما كان للعلامة المؤرخ بن خلدون ان يقدم هذا التفسير الذى يحجر على العقلية العربية لولا اعجابه الشديد بما رآه من العجم وأهل الحضر فى تلك الأيام . لقد كان اعجابه بهم اعجابا ذاتيا ، ومن هنا ننتهى الى أن حكمه على العقلية العربية كان حكماً ذاتياً ايضاً ، لأنه يجانب حقائق التاريخ . فالتقدم والتطور الحضاريين لايقتصران على عرق دون عرق آخر ، وما الحضارة الا ظروف مواتية من مال وأرض خصبة ورجال ، ذلك هو الثالوث الحضارى ، الذى اذا تواجد فى أى بلد ولو كانت صحراء قاحلة لتحولت الى مركز اشعاع حضارى . كانت مصر الفرعونية مركز اشعاع حضارى لوجود الخضرة والرجال والمال والجيوش ويوم ذهب عنها كل ذلك انتقلت الحضارة منها الى اليونان وحين ولت نفس العناصر عن اليونان انتقلت الحضارة الى بلاد الفرس والروم وبعدها كان الإسلام هو الوريث لتلك الحضارات . فالحضارة الإسلامية ولدت عربية وتربت عربية ولكنها حين شبت عن الطوق سقطت عنها تلك الصفة التى تشدها إلى عرقية المنشأ ، واسبغها الله بالإسلام . ومعيار الاحقية فى تلك السبغة الإسلامية هو اتباع أوامر الإسلام وكذلك اجتناب نواهيه ، ولذا فقد كانت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس - لماذا ؟ .

لشىء واحد هو قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » . فالخيرية فى الأمة الإسلامية تتحقق مع انتهاج مسلك صحيح وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - فتقويم السلوك واعتداله هو الاساس ولذا أقبل أهل الحضر من عجم وفرس وروم

على الإسلام لأن فيه تقويما لسلوكهم . كانت الفوضى الأخلاقية فى تلك المجتمعات تهلك الطاقات البشرية ، والعالم والمفكر ، لا يقدمان انتاجهما وقد انتشرت الفوضى حولهما . فحينما جاء الإسلام وضع حدودا للمعاملات والعلاقات لم يكن لأهل الحضر - كما يصفهم بن خلدون - عهد بها ، فأقدم العلماء والمفكرون على علوم الدين من فقه وشريعة وحديث وتفسير وكذلك أقدموا على علوم اللغة من نحو وصرف وبديع وبلاغة فظهر علماء لغة ليسوا عرباً ، حتى انه ظهر شعراء ليسوا عرباً ، قدموا اشعاراً حوتها كتب التراث جنباً إلى جنب مع الشعراء العرب أصلا ومولداً .

وتفسير بن خلدون هذا يذكرنى بقصة من قصص البخلاء للجاحظ ، يقول الجاحظ فى قصته عن أسد بن جانى بعدما اغرق فى وصفه بالبخل والتقتير على نفسه وعياله : وكان طبيبا فأكسد مرة ، فقال له قائل : السنة وبئة ، والامراض فاشية ، وانت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ .

قال أما واحدة فانى عندهم مسلم . وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب واسمى أسد ، وكان ينبغى ان يكون اسمى صليباً ، ومرايل ، ويوحنا ، بيرا . وكنيتى أبو الحارث ، وكان ينبغى ان تكون أبو عيسى ، وأبو زكريا ، وأبو إبراهيم، وعلى رداء قطن أبيض وكان ينبغى أن يكون رداء حرير أسود . ولفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى هى لغة أهل جند يسابور [الجاحظ ، البخلاء ، الجزء الثانى ، تحقيق على الجارم وأحمد العوامرى (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣ م) ، ص ص ٤ - ٥] فرغم البعد الزمنى الهائل بين الجاحظ وبن خلدون ، حيث تسبق قصة

الجاحظ تفسير بن خلدون بحوالى سبعة قرون فان بن خلدون مايزال يتمثل قصة أسد بن جانى عند حديثه عن العرب .

وان الكثيرين منا يتمثلون قصة أسد بن جانى فى هذه الإيام عند تناول ما انجزته العقول العربية والإسلامية ، فلقد عملت فترة من حياتى فى توجيه طلاب كلية الطب الى الأقسام التى يتدربون فيها أثناء الاجازة الصيفية . وأذكر مرة اننى قد ذكرت اسماء ثلاثة أطباء : الأول جراح انجليزى المنشأ والمولد واللغة والتعلم ومسيحى ولكنا نعرف ان خبرته ومهارته ليست على مايرام ، أما الثانى فهو تركى وحاصل على الجنسية البريطانية وهو جراح تلقى تعليمه فى بريطانيا وعاش وتربى فيها ، والى جانب ذلك هو مسلم محافظ ، اما الثالث فهو باكستانى وحاصل على الجنسية الأمريكية وهو متخصص فى أمراض سرطان الدم وجراحة الأوعية الدموية، وحاصل على ثلاث شهادات من ثلاث هيئات أمريكية طبية عالمية، وهو مسلم ملتزم ايضاً. ذكرت اسماء هؤلاء الثلاثة، وتلك المعلومات عنهم أمام طالب بالسنة النهائية بكلية الطب، الا أنه اختار الجراح الانجليزى رغم علمه أن الاخرين أفضل منه ، ولكنه يتفق مع أسد بن جانى فى أن الاسم والكنية والدين والجنس هم الأساس فى تحديد الاختيار.

أننا لا نلوم ذلك الشاب ، لاننا نعيش هذا الواقع الفوضوى منذ أيام الجاحظ وحتى أيام بن خلدون وحتى يومنا هذا أو ساعتنا هذه ، انها فوضى فى تلقين ابنائنا علومهم ، فنحن نقدم لهم اسهامات علمائنا تحت اسم اسهامات العرب فى حضارة أوروبا ، ونقدم لهم مفكرينا تحت اسم المفكرين العرب ، وكل هذا ينافى الحقيقة فرغم ما يجب ان نعطيه للجنسية العربية من حق وواجب تقدير الا ان الاهم هو إعلاء الجنسية الاسمى وهى الإسلام ، هل نستحى من لصق الإسلام بحضارتنا وعلومنا

وفكرنا .

ان الله يفتح علينا من خلال نعمة البصر والفؤاد والسمع اذا تمسكنا بما ينبغى ان يكون عليه المسلمون ككل . أما التقوقع فى قواقع القبلية والقومية والشعوبية وتفاضل الاجناس فكل ذلك يسلبنا فضلنا على شعوب العالم الاخرى ، وهو أولاً وآخراً يسلب اسهامات هؤلاء العلماء الاجلاء غير العرب فضلها . هؤلاء العلماء الذين قدموا دون منة ولاطلب شكر انتاجهم الضخم الذى سنبقى عاجزين عن الاتيان بمثله قرون آخرى ، لأننا فقدنا الروح الإسلامية فى النظر إلى الأمور ومنطقتها بمنطق الإسلام .

١٦ / ١١ / ١٩٨٧ م

٩ـ الإذاعات العربية السعيدة !! .

من الأمور التى لايختلف فيها كثير من الناس أن الإذاعات العربية تحظى بأقوى شبكات الأرسال العالمية التى تصل ما بين دول العالم شرقه وغربه ويستطيع المستمع فى أى بلد كان أن يستقبل الكثير من الإذاعات العربية دون عناء أو مشقة ، ما عليه الا أن يدير مفتاح المذياع لتنهال عليه إحدى الإذاعات العربية بما حوت وبما حفلت .

وسؤالنا : ماذا تحوى تلك الإذاعات ؟ وبماذا تحفل ؟ انها بكل بساطة تحوى السعادة وهى تحفل بها فى جميع برامجها وفقراتها الاذاعية . انها اذاعات سعيدة بالمعنى الكامل للكلمة ، الأغانى تمثل فيها خمسة وسبعين بالمئة على الأقل أما الربع الباقى فلا يخصص كله للمواد الجادة كنشرات الأخبار والأخبار والتعليقات والأحاديث المفيدة ، ولكن يدخل فى نصيبه جزء من الموسيقى الراقصة لهواة التسلية ، وجزء من النكات السخيفة والملح التافهة ، أضافة الى المسلسلات الهابطة ، وبعض البرامج التى لاتقل تفاهة وهبوطا عن سابقها . وعليه فان ما يخصص لنشرات الأخبار والتعليق على الأنباء والبرامج الجادة والأحاديث الدينية (التى تأتى موسميا) أو عند الصلاة ، لايتعدى كل ذلك العشرة بالمئة من ساعات بث تلك الاذاعات السعيدة . اما كرة القدم – التى هى كل فهمنا عن الرياضة – فلها أن تأخذ ما تشاء من ساعات إرسالنا فلا مانع أن تبقى ميكروفونات الاذاعة فى الملاعب خمس أو ست ساعات أو حتى عشر ساعات طوالا فى يدى معلقى الكرة المشاهير الذين كل رأسمالهم الصوت الجهورى والصراخ والعويل عند اقتراب كل كرة من الهدف . أو عند دخولها إحدى شبكات المرمى ، فعندها يصم صوت المذيع آذان سامعيه ، وتطول صرخاته وتعلو آهاته وكأن زلزالا قد وقع ، وكأنه يستغيث بالمغيث

مما يرى .

الأغنية فى جميع الإذاعات العربية تمثل على الأقل نسبة خمسة وسبعين بالمئة من ساعات البث مهما كان عدد تلك الساعات قليلا أو كثيرا. ويبقى ذلك المغنى أو تلك المغنية يتلويان وتختالهما يميلان يمنه ويسرى لاصطناع السعادة وبالتالى لاطراب المستمع المسكين المستكين . ولست أميز فى الغناء بين جيد وهزيل ، فكل الغناء حرام على من له ظروفنا الحالية فالأمة الإسلامية الآن فى محنة . ويحق لها أن تقيم سرادق العزاء على فجر كل يوم يطلع دون أن تستثمره للفواق من السبات الذى نحن فيه . حتى ولو كانت الأمة الإسلامية منتصرة فإن الغناء يبقى حراما عليها لأن الغناء رخاوة وفيه استرخاء للأعصاب وهذا مما يتنافى مع الإسلام وقيمه . لذا كان تخصيص ثلاثة أرباع ساعات البث الإذاعى للغناء وحده يعتبر من كبريات الجرائم التى ترتكبها أجهزة الإعلام المسئولة فى حق المسلمين . اضافة إلى أن الربع الباقى تتخلله الموسيقى الراقصة التى تثير فى النفوس المتراخية الطرب والنشوة وتجعلها تهيم فى سبحات الكسل والخمول والركون الى الدعة والراحة . كأن تلك الموسيقى تكمل النقص الذى لم يسده الغناء ، وكأن صوت تلك المطربة أو ذلك المطرب لم ينجح فى دغدغة ما تبقى من عزيمة لدى ذلك الشخص .

ولتكن لنا وقفة مع الغناء العربى فتاريخه جزء من تاريخ الفوضى الثقافية التى نعيشها ، فقد بدأ الغناء العربى وأرسيت أصوله فى العصر العباسى الذى شهد بذور الفوضى التى نعيشها حاليا . واذا كان إبراهيم الموصلى واخته ممن اشتهروا بالغناء والطرب فى ذلك العصر المتناقض لما كثر فيه من عناصر الحضارة ، فان كتب التاريخ تذكر فقط أن آخرين اشتهروا بالغناء والطرب وتضع تاريخا موثقا للاشعار التى غنوها

وللموسيقى التى صاغوا بها ألحانهم . أما التسجيل الصوتى فانه حديث العهد ولم يدخل عالمنا الإسلامى الا فى بدايات القرن العشرين وياليته تأخر قليلا .

فحديثنا هنا يتناول الغناء المسجل بالصوت واللحن . وبداية نقول أن الأغانى التى صيغت لحنا كانت كلها شعرا ، فهى اما شعر قديم معروف لفحول الشعراء العرب والمسلمين أو من الموشحات ، أو كان يكتبها معاصرون . وذلك ان دل على شىء فانما يدل على أن الشعب الذى يتلقى تلك الأغانى كان مثقفا ، وأنه لن يرتضى الغناء بلغة عامية مبتذلة كتلك التى نسمعها فى أغانى هذه الأيام . مع ملاحظة أن جمهور المتلقين للغناء فى ذلك الوقت كان قليلا جدا ، وكان المتلقى للغناء أو المتغنى له يعتبر مارقا فى نظر المحافظين . كانت تلك هى البداية فى الدخول الى نفس المسلم وغزوها شعر يغنى ولاشىء فى ذلك .. الخطوة الثانية هى : من يغنى ذلك الشعر ؟ لابد أن يكون المغنى شيخا من حفظة القرآن أو أن يكون أحد منشدى الموالد المشهورين . وأضرب على ذلك بأربعة وهم : الشيخ سلامه حجازى ، الشيخ سيد درويش ، أم كلثوم ، والشيخ سيد مكاوى . فقد كانت بداية الرجال الثلاثة فى هذه المجموعة بداية طيبة ومباركة وهى تلاوة القرآن بصوت عذب ، وكانت أم كلثوم ممن يشتهرون فى ريف المنصورة وطماى الزهايره - بلدها - بأنها « صيبتة » أى ممن يحيون الموالد النبوية وموالد ما يدعون بالأولياء . ولأمر ما تحول الرجال الثلاثة ورابعتهم إلى الغناء يرافقهم العود والطبل والمزمار ، وان كانت البدايات كما قلنا شعرا تقليديا فخما زخما ، فان ما سجل لهم ثبت فيما بعد أنه مما يقول عامة الناس والرعاع ومما نجده فى أزقة الشوارع والحوارى.

وهكذا أصبح هناك أستراتيجية جديدة لجذب وتجنيد الأصوات الجديدة إلى الغناء : الشعر التقليدى ، المدائح النبوية ، الموالد ، ثم ليكون ذلك المغنى شيخا ، أو لتكون تلك المغنية « صبيتة » كما أسلفنا . لكن الاستراتيجية تغيرت فى السنوات الأخيرة . فقد شهد عام ١٩٧٧ م مولد مغنية صفق لها رئيس الدولة وأثنى عليها ، وكانت تلك أشارة البدء فى فتح أبواب الاذاعة والتليفزيون أمامها حتى تقدم فنها الرفيع - كما يصفونه - وهكذا غيرت اسمها وخلعت نفسها من وسط بيئة ما كان لها ان تتركها بأى حال من الأحوال واحترفت الغناء . بدأت فعلا بالمدائح النبوية التى صيغت فى شعر موزون رصين مقفى . ولكنها انتهت بغناء كلمات عامّية هابطة لا طعم ولا لون ولا ذوق فى اختيارها ، وبقيت بفضلها محبوبة ومعروفة لدى جمهورها . بقى أن يعرف القارىء الكريم أن تلك المغنية هى ابنة شيخ مشايخ قراء القرآن فى العالم الإسلامى أجمع مات كبتا على ما يرى ، وكلنا يعرف فضله ويعرف صوته . وهكذا وصلت الفوضى بتحريك من أناس بعينهم ، الى بيت من أحصن البيوت لتنال منه. ولتنال من الإسلام ، وليقول من يسير فى درب الغناء فيما بعد : « اذا كان هذا حال ابنة شيخ مشايخ القراء - فما بالى ؟ » ظاهر ذلك السؤال يبدو حجة مقنعة ولكن جوهره يثير الألم ويحز فى النفس فلقد استطاع أباطرة الفوضى أن ينالوا من أسمى قيمنا ، وأن يدوسوا أغلى مقدساتنا بأقدامهم الآثمة . وعبثوا بأغلى ما نملك وعاثوا فسادا ومايزالون . وبقيت لهم الاذاعات يصولون ويجولون فيها ان لم يكن بالغناء وبالطرب فبالبرامج التى يكون ضيوفها المطرب الفلانى أو المطربة الفلانية وعفوا يسمونهم « فنانين » ورحم الله يوما كانت فيه المحاكم المصرية لاتقبل شهادة أى من هؤلاء . لأن المشرع اعتبر من يقدم على أى من تلك المهن « الفنية »

بمفهوم شارع محمد على الشهير ، انما نقص عقله ودينه ومن ثم فلا تقبل منه شهادة فى أى محكمة مصرية . وتغيرت الأحوال ، وأصبح لهؤلاء الفنانين نقابة ، وأصبح لهم تمثيل فى البرلمان المصرى تقليدا لبعض الفنانين فى الغرب . وفى الواقع أنه ليس تقليدا فقط ، انه سير فى نفس الخط الذى بدىء فى الغرب ويجب أن يستكمل عندنا وفى أوطاننا . ولا تقل مشاركة التليفزيون للاذاعة فى هذا المضمار ، فاذا كانت الاذاعة تقدم الصوت فقط فان التليفزيون يقدم الصورة ويبرز فيها ما خفى على المستمع المسكين ، فتكون مفاتن ومحاسن ذلك المطرب أو تلك المطربة فى متناول يد وعين واحساس المشاهد الذى يستطيع أن يسجل أو يقتنى هذا الصوت وتلك الصورة على شريط فيديو لا يكلف كثيرا فى هذه الأيام .

ونستكمل حديثنا عن الإذاعات العربية السعيدة فنقول أن نشرات الأخبار والتعليق عليها وعلى موضوعات الساعة لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فالأخبار كلها أو معظمها محلية مع أنها تذاع على شبكات أرسال عالمية تصل إلى كل مكان وذلك واضح من دقائق الافتتاح الأولى حيث يقرأ مذيع الافتتاح أطوال وأنواع الموجات التى تبث عليها تلك الاذاعات وكذلك البلدان التى تصلها . وتعليقات الأخبار مقتضبة ومختصرة وهى تكون للموضوعات التى نعرفها فقط ، اما التى لا نعرفها فلا داعى أن نبحث عنها ، لأن فى البحث عن المجهول - كما ترى نفوسنا المسترخية - عناء ومشقة ومخاطرة وربما اثم وذنب .

ولذا تأتى نشرات الأخبار ناقصة مبتورة ، وتأتى التعليقات سطحية تافهة ، ومن ثم يلجأ بعض المستمعين ممن يجيدون اللغات الأجنبية إلى التقاط الاذاعات الغير عربية التى تنطق بالانجليزية أو الفرنسية ، أو الروسية أو غيرها من لغات البث الاذاعى .أما المستمع الذى لا يجيد أيا

من تلك اللغات فانه يلجأ الى اذاعات الغرب والشرق التى تبث بعض برامجها باللغة العربية مثل هيئة الاذاعة البريطانية ، وصوت أمريكا ، ومونت كارلو ، وصوت المانيا ، واذاعة موسكو . فهذان النوعان من المستمعين يجدون ضالتهم المنشودة لدى الإذاعات غير عربية الجنسية ، رغم أن جميع مذيعيها عرب وقد عمل معظمهم فى اذاعاتنا المسماه بالاذاعات الوطنية .

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى : لماذا يكون المذيع العربى فى تلك الاذاعات الأجنبية مصدر جذب لمعرفته وعلمه بينما هو مصدر تنفير فى اذاعاتنا الوطنية ؟ وللاجابة على هذا السؤال علينا أن نضع فى الاعتبار أن المذيع فى الوقت الراهن يختلف عن المذيع فيما مضى . المذيع فى الماضى كان عليه أن يقوم باعداد المادة العلمية لبرنامجه ويجرى مقابلاته ويضع اسئلته بمعرفته هو ، ويقوم فى أحيان كثيرة باخراج ذلك البرنامج بنفسه . باختصار شديد ، كان مذيع بدايات الاذاعة العربية مقتصدا فى عدد أعضاء فريق الفنيين الذين حوله . أما اليوم فان المذيع - وتلك هى حال الغالبية - مجرد قارىء لنشرة أو لمادة علمية فى أحد البرامج الاذاعية أو التليفزيونية . ان احساسه بالمادة التى يقرؤها يكاد ينعدم وأبسط دليل على ذلك التلكؤ أو التلعثم الذى نلحظه أو نسمعه عند اذاعة هذه المادة أو تلك . والوضع سيكون مختلفا لو أنه هو الذى كتب تلك المادة أو شارك فى صياغتها . فان كاتب هذه السطور لن يستغرب أيا من العبارات أو الفقرات الواردة فيها لأنه هو الذى خطها مرة فى الكتابة الأولى ، وخطها فى الكتابة الثانية ويقرؤها عند طباعتها على سبيل المراجعة والتدقيق .

وليس اعتماد المذيع على فريق الفنيين من معد ومخرج ومنفذ من

الأمور التى تنكرها ، على العكس من ذلك نحن نشجعها لأن فيها تجويد للعمل وتحسين من صفاته . ولكنا نسأل : ما هى النوعية الناتجة فى النهاية ؟ هل هى نوعية جيدة أم رديئة ؟ وبداية نقول أن نوعية البرامج التى تذاع من اذاعات عربية رديئة ، بينما التى تذاع - باللغة العربية - من اذاعات غير عربية كتلك التى أشرنا اليها فى صدر حديثنا نوعية جيدة. ذلك أن الاعداد البرامجى فى اذاعاتنا العربية ردىء بينما هو فى غير الاذاعات العربية جيد . وقبل أن نتحدث عن السبب وراء جودة برامج الاذاعات غير العربية لنا أن نتساءل عن سبب رداءة برامج الاذاعات العربية .

وأول أسباب رداءة برامجنا العربية قد لايبدو منطقيا ولايتصل بالاذاعة بشىء ، ألا وهو « الواسطة » والمحسوبية ، فالواسطة - أى تولية الأمر لشخص غير مؤهل له - تنتشر فى الإذاعات العربية السعيدة مما يشكل مرضا مزمنا سيقضى عليها يوما من الأيام ويجبرها على التوقف لولا الدعم الحكومى الذى تلقاه . ويكفى أن نجد فى كل اذاعة عربية الأب مثلا ثم يتبعه ولده الأكبر ثم الولد الثانى ثم إحدى البنات ثم إحدى القريبات أو زوجته أو شقيقة زوجته . وهكذا تتحول الإذاعات العربية إلى أماكن يشغل وظائفها من لم يوافيه الحظ الوظيفى فى غيرها . ويرتكز أهل « الواسطة » هؤلاء إلى أن محاسيبهم الذين يعينون بالإذاعات العربية قد اجتازوا بنجاح جميع الامتحانات التى عقدت لهم . فمن بين ألفى متقدم - فى المتوسط - للعمل بإذاعات القاهرة يتم اختيار عشرة مثلا لابد أن يكون بينهم واحد أو اثنان ممن تربطهم صلة بمذيعين يعملون بتلك الاذاعة . وأهم ما فى الأمر انه لاتوجد شروط ثابتة للعمل فى الحقل الاذاعى . فرغم وجود أقسام للإعلام فى معظم الجامعات العربية بل

ووجود كليات بأكملها للإعلام ، الا أنه يبقى أن الشرط الوحيد للتعيين هو اجادة العربية وإحدى اللغات الأوروبية نطقا وكتابة وترجمة مع سلامة اللفظ ومخارج الحروف . وتلك شروط عامة وان لم تكن سهلة فى معظمها، الا أنها قد تتأتى لكثيرين يستطيعون الدخول منها إلى أهم وسائل التأثير فى الفكر العربى والإسلامى المعاصر ، مما ينعكس فيما نراه من تردى الاهتمام بجودة البرامج لأن نفس ذلك المذيع ستمر عليه السنون ثم يرتقى بعدها فى السلم الوظيفى ليصبح مسئولا أو مديراً لأحد قطاعات أى من تلك الاذاعات .

وثانى الأسباب هو أهمال اللغة العربية . فمذيع الإذاعات العربية السعيدة يبدو وكأن هناك غربة بينه وبين اللغة العربية ، لغته القومية . ونحن لسنا بصدد أسباب ضعف تلك اللغة صياغة ونطقا وتحدثا . كما أن المذيع العربى يحس بثقل العربية على لسانه ، والمتمكن من قواعد اللغة العربية يستطيع أن يعد لكل مذيع عربى ما لايقل عن خمسة أخطاء فى كل نشرة اخبارية يختار لها مذيع قدير كما يتعارفون عليه فى تلك الاذاعات . ولذا لم يكن مستغربا أن تقوم هيئة الاذاعة المصرية باعداد دورات لغوية للمذيعين الجدد ودورات انعاش أخرى للمذيعين القدامى للاحساس بأن ثمة تفريطا فى قواعد اللغة العربية يؤذى اذن كل حريص على سلامة اللغة .

وهناك أشياء أخرى تؤدى بشكل أو بآخر الى هبوط القيمة الفنية للاذاعات العربية . نعدد منها الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المحيطة بالمجتمع فنحن نتصور ان الإذاعة تعكس صورة المجتمع كما هى على أعتبار أن الإذاعة وسيلة تعبير فنية تأخذ من المسلسلة الإذاعية والبرنامج التمثيلى والاخبارى وسطا لذلك واذا كان المجتمع قد تحلل من

قيمه فلا غرابة أن تكون الاذاعة أيضا كذلك . والتحلل فى الاذاعة يكون بانتشار الضحكات العالية بين المذيعين والمذيعات أثناء اذاعة برامج ما يدعى بالتسلية الخفيفة أو السخيفة ، وبانتشار الموسيقى الصاخبة بين فقرات البرامج ، وباختلاط ما يسمى بالأغانى الغربية ببقية الفقرات . وذلك التحلل الاجتماعى نراه فى استخدام العامية فى كثير من المواد المذاعة ونراه أوضح حين تصبح لغة المواد هى العامية فقط دون غيرها ، مما يضطر تلك البرامج الى التنازل أيضا عن استخدام الفصحى ويستبدلون بها لغة المذيع العامية بمحلياتها ومفرداتها الغريبة والتى تبدو جنسا لغويا مستهجنا .

كذلك الظروف الاقتصادية تتحكم فى نوعية البرامج التى تذاع من الإذاعات العربية السعيدة ، فان اعداد تلك البرامج يحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة . وتلجأ بعض الدول إلى استعارة فنيين ومتخصصين من دول أخرى وتدفع لهم أموالا كثيرة حتى يقوموا باعداد برامج قومية للإذاعات المضيفة وذلك إلى جانب استعارة مذيعين ومذيعات يذيعون موادا إعلامية مختلفة بأصواتهم . ويحتاج الاعداد الإذاعى لدفع أجور ضيوف البرامج المتنوعة والمتحدثين اليها ، فهناك شخصيات أدبية وأقلام مشهورة لا تقبل الادلاء بكلمة للإذاعة أو لغيرها الا عند دفع قدر من المال . ويكون من عناصر جودة الإذاعة استضافة شخصيات هامة للتحدث إلى مستمعيها بين حين وآخر ، فاذا لم يكن هناك قدرة مالية للدفع فان الإذاعة ستتوقف عن دعوة أى من تلك الشخصيات مما يفقدها شعبية وانتشارا يفترض أنها تسعى اليهما . والإذاعة تحتاج إلى الأموال لشراء المعدات والسيارات المجهزة بوسائل الإرسال الخارجى ، وكذلك تحتاج إلى السيارات المريحة لمذيعيها وفنييها وذلك لأنهم يؤدون عملا ذا نوعية متميزة كما أنهم

يعتبرون واجهة اجتماعية لأى دولة ومن ثم وجب توفير كل ما يؤدى إلى اضفاء الاحترام والتوقير لهم من قبل الناس وعامة الشعب . إلى جانب ذلك فان الاذاعة تحتاج الأموال لتوفير خدمات اجتماعية أخرى كالملبس والمسكن وبقية النواحى الترفيهية لمذيعيها وفنييها والعاملين بها . وفى حال افتقار الإذاعة للميزانية القادرة على الدفع فأنها لا تكون عامل جذب لأى موهبة تريد الظهور ، ويكون ذلك عامل تنفير للطاقم القديم الذى عانى وتحمل كثيرا من المتاعب ، فيتركون تلك الإذاعات إلى غيرها قادرة على الدفع اما على سبيل الاعارة أو التعاقد الشخصى سواء بين الدول العربية بعضها البعض ، أو فى الإذاعات العالمية التى بها أقسام للبث العربى .

أما العامل الثقافى فهو أخطر العوامل وأشدها تأثيرا فى شخصية الإذاعة . ونحن هنا لن نطيل ولن نقف كثيرا عند هذا العنصر ، لأن جميع مقالاتنا هنا تتناول الثقافة العربية وأحوالها . الا أنه ينبغى القول أن الثقافة الجيدة لابد أن تسقط نفسها على الإذاعة العربية فتكون موادها المذاعة ذات مذاق طيب ومن ثم تكون عامل جذب للمستمع يستغنى بها عن التقاط الإذاعات الأوروبية أو الأمريكية التى تذيع برامجا عربية . أما أن يكون شعار أحد البرامج العربية وعنوانه « غمض عينيك وامشى بخفة ودلع .. الدنيا هى الشابة وأنت الجدع » وأن تقف المذيعة بين فرقة موسيقية هابطة لتقول « دقى يا مزيكة » ، وأن تخصص الإذاعة يوميا نصف ساعة للنكات الهابطة والسخافات التى لاهدف لها الا الاضحاك الرخيص ، أن تكون الإذاعة هكذا ، فان الثقافة المتحصلة فى النهاية هابطة وغير ذات قيمة تذكر .

تحدثنا فيما مضى من صفحات عن الإذاعات العربية ووصفناها

بالسعيدة حزنا عليها لا انبهارا بها . فإذاعاتنا سعيدة لأن ما فيها من غناء وطبل وزمر يسبغ عليها تلك الصفة . الا أنها تساهم فى هدم البناء الثقافى العربى ، وتؤدى بما تذيعه من برامج متدنية المستوى إلى تفشى الفوضى الثقافية التى هى موضوع مقالاتنا فى هذه السلسلة ، والتى ندعو الله أن نتخلص منها قريبا حتى يستطيع العرب والمسلمون أن يروا أنفسهم أولا ثم يروا العالم من حولهم برؤية جديدة فنحن فى عصر الأقوياء فقط ..ولا بقاء الا للأصلح .

٣ / ٤ / ١٩٨٨ م

١٠ - أبو جهاد والجابرية والقذافي

ليست صدفة أن يجيىء اغتيال أبى جهاد فى الذكرى الثانية لضرب الأمريكيين لمقر قيادة معمر القذافى فى ليبيا ، وليس صدفة مرة ثانية ان يجيء اختطاف الطائرة الكويتية « الجابرية » فى نفس الموعد ، وليس صدفة ثالثة أن تجيىء تلك الاحداث الثلاثة فى ذكرى مرور ثلاثة أعوام على ضرب قواعد حركة التحرير الوطنى الفلسطينى فى تونس . فمقتل رمز المقاومة الفلسطينية المسلحة أبو جهاد ترقيت زمنى دقيق تقصد أمريكا واسرائيل من ورائه إلى التذكرة دوما باليد الطولى التى يراد لها أن تبقى طويلة بعد أن قطعتها معارك أكتوبر رمضان على الأرض المصرية. فأمريكا بزعامة ريجان العجوز المريض تريد أن تلعب دورا ما فى العالم ، وهذا الدور لا تتخير له منطقة سوى عالمنا العربى ، فلدى العرب يجدون كرم الوفادة ، وحسن المعشر ، وطيب المقام ، ويجدون فوق ذلك من يزودهم بأدق المعلومات وأهمها عن حياتنا ومنشآتنا وقواتنا وعتادنا وعدتنا - واذا كان سعر كيلو الطماطم فى السوق المصرية معلومة هامة تسعى اليها المخابرات الإسرائيلية بجد وإجتهاد ، فما بالك بمواعيد تسليم وتسلم صفقات الأسلحة وما بالك بصور ومعلومات عن منشآتنا العسكرية.

أن التنسيق بين أمريكا وإسرائيل وبريطانيا تنسيق دقيق ، ولقد جمع الثلاثة عنصر الأفول وقرب الزوال . فشمس أمريكا تتوسط كبد السماء وهى فى طريقها الى أفول ، أما إسرائيل فانها لا محالة زائلة سواء باستمرار الانتفاضة الفلسطينية العارمة ، أو باستمرار النضال المسلح للاخوة الفلسطينيين ، أو ثالثا باستمرار الحالة التناسلية التى عليها

الأمهات الفلسطينيات ، فان متوسط انجاب الأسرة الفلسطينية يتعدى السبعة بينما هو عند الإسرائيلين لا يزيد عن اثنين فى أحسن الأحوال مما سيجعل الإسرائيليين - بمرور الزمن - يعيشون أقلية وسط أغلبية من العرب . أما بريطانيا ، فانها قد انتهت منذ زمن طويل وما بقى أمامها إلا أن تقوم بأعمال صبيانية مثل مغامرات فوكلاند ، وادانة وضرب القذافى ، وتأييد أمريكا فى كل ما تقدم عليه ، وهى بزعامة امرأة مترجلة ما عليها الا أن تطأ قيعان الوحل قريبا جدا .

تلك القوى الثلاث أمريكا وبريطانيا وإسرائيل قلقة من الوجود الإسلامى والعربى والفلسطينى ، فالإسلام والعرب وفلسطين ثالوث خير لا ينفصم وقد يئست قوى الهيمنة العالمية منذ زمن طويل فى السيطرة عليه أو فك أواصره . حينما ضربت أمريكا مقر قيادة القذافى وقتلت صغرى بناته أيدتها بريطانيا فقد كانت شريكا لها ، وحينما ضربت اسرائيل قواعد منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس فرحت أمريكا وبريطانيا وشاركتاها الفرحة . وفى السنوات الثلاث التالية تصاعدت الحملة ضد الأرهاب الدولى زاعمة أن القذافى هو مقرها ومستقرها ، وبالطبع كان البريطانيون والأمريكيون ومن قبلهم الإسرائيليون هم أصحاب تلك الحملة التصاعدية والمقنعة لدرجة أن بعض الاقلام العربية أخذت تردد كلمات الارهاب والارهابيين وبقية اشتقاقاتها بنفس المعنى والمغزى الذى تقصده تلك القوى دون أن يفطنوا أن المقصود بذلك هم العرب .

واستمرت تلك الحملة الدعائية ضد العرب - عفوا ضد الارهابيين - قرابة الثلاث سنوات قبل أن يتم اغتيال خليل الوزير . كان من الممكن أن تنفذ اسرائيل عمليتها ضد أبى جهاد منذ ثلاث سنوات ولكنها تأخرت

لتكسب إسرائيل مصداقية كبرى لدى بريطانيا وأمريكا . انني اختلف مع من يقولون ان إسرائيل اتخذت قرارا باغتيال الوزير بسبب الانتفاضة ، فقد كانت الانتفاضة عاملا مساعدا فقط فى اغتياله ، أما التوقيت فهو الذكرى الثانية لضرب القذافى . فالقذافى رمز لا يستريح له الكثير من العرب بنفس القدر الذى لا يستريح له ثالوث أمريكا بريطانيا إسرائيل ، فى نظرهم أرهابى وفى اعتبارهم مخرب . لكن تبقى الحقيقة التى لن يستطيع أحد اخفاءها أن القذافى شوكة فى ظهر قوى البغى والعدوان التى يتزعمها ذلك الثالوث . فهو عربى مسلم وهو يعتز بعربيته وإسلامه، ومن الغريب حقا أن نجد جيهان السادات فى كتابها الهزيل سيدة من مصر تهاجم القذافى مستخدمة نفس النمط الأمريكى الإسرائيلى البريطانى لأنه فى نظرها داعية للإسلام ومتمسك بعربيته . نعم كانت إسرائيل قادرة على اغتيال الوزير منذ ثلاث سنوات وفى نفس اليوم الذى هاجمت فيه قواعد المناضلين الفلسطينيين فى تونس . وكانت تستطيع أن تنتهى منه ومن آخرين فى نفس اللحظة ، ولكنها انتظرت حسب استشارة رفيق السلاح بريطانيا وأمريكا حتى اغتيل الوزير قبل أول أيام رمضان لعام ١٤٠٨ هـ ليكون فى اغتياله فى هذا الوقت ما يبرر فعلة إسرائيل ، وعلى حد قولها أنها أقدمت على قتل أرهابى زعيم للارهاب الدولى ، أو حسبما دأبت عليه اذاعة إسرائيل « قتل مخرب زعيم للمخربين » . وقد شيعته الجماهير العربية فى سوريا فى جنازة مهيبة تذكرنا بجنازة جمال عبد الناصر عندما انهارت جميع الاجراءات الأمنية والترتيبات التى وضعت لضمان سير الجنازة رسميا وعسكريا . انه حب الشعب يتحدى الحزن فى حين أرادت إسرائيل وشركاؤها أن يغرقوا العرب فى ظلمات ذلك الحزن على فقدان

خليل الوزير .

وقد سبق قتل أبى جهاد قرار أمريكى متعسف انتهك كل المواثيق الدولية باغلاقها مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بالأمم المتحدة ، وسبق قتل أبو جهاد أيضا عملية دامية انتهت نهاية غير مشرفة وذلك باختطاف الطائرة الكويتية « الجابرية » وقد استمر اختطاف الطائرة ستة عشر يوما قتل اثنان من ركابها الأبرياء فى أبشع صورة عرفتها كاميرات التليفزيون والصحافة والسينما ، وكلنا رأى منظر القاء جثتى هذين البريئين تلقيان من باب الطائرة كما تلقى أكياس القمامة فى شوارع الدهماء من النوافذ والشرفات . وستبين الأيام أن من خططوا لاختطاف « الجابرية » هم عملاء لإسرائيل بنفس القدر الذى هم فيه عملاء لإيران أو للشيعة . فما أوجد الشيعة الا يهودى حاقد حانق هو عبدالله بن سبأ ، وقد أفلح فى ذلك أيما فلاح فأوجد من بيننا من هو أحرص منه على مصالح اليهود ومطامعهم . ان تحليل اختطاف الجابرية ، أمر ضرورى كما أن ربطه باغتيال أبو جهاد أمر جوهرى . فقد قالت أمريكا وإسرائيل وبريطانيا فى مقدمة مسرحية الاغتيال الواقعية : « انظروا ها هم العرب أرهابيون خاطفو الطائرة الكويتية عرب يتكلمون لهجة لبنانية وانظروا الكويتيون يعتقلون سبعة عشر زعيما دينيا مسلما وانظروا ها هم الأرهابيون العرب يقتلون ضحايا عرباً ويلقونهم أمام الصحافة والتليفزيون دون رحمة انظروا هؤلاء هم المسلمون مبدأهم القتل : المسلمون على الطائرة يقتلون مسلمين أبرياء على نفس الطائرة ألسنا محقين فى تأديبهم ؟ » — ويجيب الأتباع : « بلا » . وبعد ذلك يضاء النور الأخضر لإسرائيل فتقوم فى غيبة الأمن التونسى الناعم وتقتحم منزل أبى جهاد وتغتاله دون أن تمنحه فرصة للمواجهة ، وبذا تفوز اسرائيل بتأييد العجوزين ريجان وتاتشر . وعلى الرغم من

صدور بيانات الاستنكار والشجب فى مختلف دول أوروبا والعالم أجمع فان بريطانيا وأمريكا لم يدينا ذلك العمل ولو على سبيل المجاملة السياسية أو مراعاة لبروتوكلات الدبلوماسية الدولية . وأتصور أن واحدة منهما أو كليهما ستستخدم حق النقض « الفيتو » ضد أى قرار بادانة اسرئيل فى مناقشات الأمم المتحدة هذه الأيام والتى تجىء بناء على طلب تونس الدولة التى وقعت على أرضها تلك العملية فكيف تكون الادانة وهما الرأس المدبرة لتلك العملية من الألف الى الياء ، وقد تركتا التنفيذ لإسرائيل .

ولكن ليعلم زعماء البغى والبغايا أن ظنهم خائب . فاذا كانت تلك القوى قد استغلت حاجة فقراء العالم لتقنعهم أن الأرهابيين عرب أو أن العرب أرهابيون ، فان لكل سبات فواق . وقد أفاق العالم وعرف قبل أن نعرف نحن أن الأمريكيين هم الأرهابيون حقا وقولا وفعلا . فما تقوم به أمريكا « الحرة » فى أمريكا اللاتينية فى فيجى والأرجنتين ، وبين كوستاريكا ونيكاراجوا ، ومع ثوار الكونترا وأخيرا التدخل السافر فى بنما - لا تحليل له الا الأرهاب وفرض السيادة بأى شكل ممكن . وقد لايعرف الكثيرون أن أمريكا انكشفت أمام الألمان الذين سعت جاهدة لتحييدهم وترويضهم منذ انكسار المد النازى ، فأصبح الأمريكيون أعدى أعداء الشعب الألمانى ، ويحذر علماء الاجتماع الألمانى وقادته من اختلاط شبابهم بالأمريكيين لأن الأخيرين مفسدة وهلاك للشعب الألمانى . وقد صدق هؤلاء فما نقل الأيدز إلى ألمانيا سوى جنود الجيش الأمريكى الذى لا يكف أفراده عن « مضغ العلكة طالما بقيت عيونهم مفتوحة » ، ومن ثم أصبحت ألمانيا من أكثر دول أوروبا والعالم اصابة بالأيدز .

قوى البغى تلك أفهمت العالم أجمع - الا المنتبه منه - أن مقاومة

الفلسطينيين للاحتلال الظالم نوع من الأرهاب . ولقد اتخذت حركة التحرير الوطنى الفلسطينى مسارا فى بداية انطلاقتها كان لابد أن تأخذه . فكيف يسمع العالم صوتها اذا كانت كل أجهزة الإعلام العربى أول من يحاربها وكيف يسمع العالم صوتها اذا لم تكن مسموعة لدى العرب أولا . لذا كان خطف الطائرات وتفجيرها ولذا كان خطف أعضاء فريق كرة القدم الإسرائيلى فى ميونيخ وتفجير المكان بما فيه ومن فيه من خاطفين ومختطفين ، وليس الدم العربى بأرخص من الدم اليهودى أو الأوروبى أو الأمريكى ، واذا كانت بريطانيا وأمريكا مسئولتين عن قيام دولة إسرائيل فلتتحملا مزيدا من الضحايا والقتلى حتى تعود فلسطين للفلسطينيين . ان قتل عشرات الأنجليز والأمريكيين يوميا لن يعوض الاف القتلى من فلسطين وعرب ماتوا على أراضى فلسطين ومصر وسوريا والاردن فى معارك شرسة ضد إسرائيل التى ما جرؤت أن تدخل أيا منها الا بسلاح أمريكى أو انجليزى .

ليكن فى قتل أبى جهاد ، ومن قبله فى ضرب مقر قيادة القذافى ، وضرب معسكرات تدريب فتح فى تونس ، وليكن فى اختطاف الجابرية والافراج عن ركابها دروسا نستفيد منها . فقادة حركة التحرير الوطنى الفلسطينى هم رموز الارتفاع العربى عن مستوى الفردية وحب الذات ، وهم الأمل فى مستقبل عربى مشرف ويجب توفير الحماية لأنفسهم وذويهم فذلك أقل ما يمكن تقديمه لهم بعد أن سلبت أرضهم وتبخرت أمانيهم فى الأمن والأمان . ولنذكر دائما أن إسرائيل ما وصلت إلى أبى جهاد الا لعلمها بضعف وقصور الاجراءات الأمنية المفروضة حوله ولنتعلم من حادث الجابرية أن التفريط فى اجراءات الأمن أمر له عواقبه ، والا نتسامح مع من أساء مرة حتى لايسىء مرة ثانية وثالثة . وما قتل العرب

الا التسامح وما قتل العرب الا كرم الضيافة والوفادة اللذين تقدمهما لأصحاب العيون الزرقاء بقدر لا تقدمه لبقية العرب المسلمين المخلصين . ولننظر إلى أستقبالات أحد الوزراء من الدول الأوروبية أو أمريكا ونقارنه باستقبال رئيس جمهورية أو ملك عربى مسلم . الأول يستقبل استقبال الفاتحين أما الثانى فيرسل فى استقباله رئيس بعثة شرف بدرجة وزير دولة ، لذا يطمع فينا الغرب وتطمع فينا اسرائيل وتطمع فينا أمريكا . ولقد آن لنا أن نفيق . فالطلقات التى مزقت جسد أبى جهاد قد تمزق جسد أى زعيم عربى يرفع رأسه ضد قوى البغى فى عالمنا اليوم . ولنعلم أن لتلك القوى عملاء بيننا رقباء علينا يكتبون وينشرون أسرارنا فلنكن حذرين فى التعامل معهم ، ولنحفظ أسرارنا فى صدورنا ولنمنع السنتنا عن القيل والقال . لنتعلم حفظ الأسرار منهم ، ولنتعلم خصوصية الحياة العامة والخاصة منهم . لا نمكنهم من رقابنا بالحديث عن أعمالنا ، ولا نمكنهم من دولنا بالحديث عن زعمائنا وقادتنا ، ولا نمكنهم من التفريق بيننا بشكوى خلافاتنا علانية عبر الإذاعة والتليفزيون . ولتكن أسوتنا دائما سيرة الرسول العطرة وصحبه الكرام وليكن وصفه تعالى لنا « أشداء على الكفار رحماء بينهم » هو الوصف الذى نسعى اليه ونثق فى تحقيقه .

رحم الله أبا جهاد وأسكنه فسيح جناته ، ولتكن فى ذكراه وسيرته شرارة انطلاق دائمة نحو التغيير باتجاه الوحدة ويتر شأفة الخلافات الدائمة .

٢٠ / ٤ / ١٩[illegible]م

١١- القوانين الوضعية وفوضى الأحكام

فى أعقاب ثورة ١٩١٩ م وأثنائها اندس الى الصفوف شعار « الدين لله والوطن للجميع » ، وظهر الهلال إلى جانب الصليب كما يحكى تاريخنا وكما تسجل أقلام كتابنا ، وكان ان ضعف هذا الشعار وما له من مدلولات بمرور الوقت حتى جاء شعار آخر قد يبدو غير ذا صلة بسابقه وهو « دولة العلم والأيمان » وذلك فى السبعينات من هذا القرن الغليظ المنتفخ الذى نعيشه وندعو الله ألا يستمر على ما هو عليه .

الفترة الزمنية بين هذين الشعارين قاربت خمسة وخمسين عاما ، لكنها أنجبت رغم طول الوقت نتاجا سعد له وبه كل أعداء الإسلام ، ذلك النتاج هو الاتيان على ما تبقى من قوانين شرعية إسلامية تنظم علاقات الأفراد فى ظل دولة إسلامية ، حتى وصل الأمر قمة الفساد بصدور قانون الأحوال الشخصية فى عام ١٩٨١ م والذى كان وراءه مجموعة من النساء هن مسلمات إسما ، وغير مسلمات فعلاً ، وقد انتفعت بقوانين الأحوال الشخصية تلك مجموعة من النساء الناشزات النساء سيىء السمعة ولم تستح الصحف الرسمية من إعلان أسمائهن وتفصيل حالاتهن على الرأى العام .

« الدين لله والوطن للجميع » يعنى أن لكل دينه فالمسلم يبقى مسلما والمسيحى مسيحيا واليهودى يبقى يهوديا وعلى الجميع أن يعيشوا فى ظل سماء مصر وعلى أديم أرضها - هذا حد فهمى وفهم البسطاء لذلك الشعار . وعليه فان حكام مصر يكونون مسلمين ومسيحيين ويهودا ، وتكون قوانين مصر كذلك مع ما يتفق وهوى ومزاج أصحاب الأديان الثلاثة ، وتكون عادات مصر ثالثاً تتفق وتلك الأديان ، وأن يقام المسجد

إلى جوار الكنيسة وإلى جوارهما معبد يهودى . ولقد تنبه المسلمون فى مصر الى سر مدية تلك الأكذوبة وثاروا عليها وصححت بعض الأوضاع الخاطئة ، وقد كان لمشرعى القضاء والقانون المصرى المحافظين أثر بالغ فى تعديل تلك الأوضاع . ولكن عادت نفس النغمة فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣م حينما أعلن الرئيس المؤمن بالله مصر « دولة العلم والإيمان » أى علم ، وأى إيمان ؟ لماذا لم يرح نفسه ويعلن أنها علمانية بحتة . وأخذ فى ذلك سبيلا خدع فيه مصر وكثيرا من العرب .

فجأة ظهر لنا أن القرآن الكريم لا يمكن فهمه الا من خلال تجارب العلماء ومختبراتهم واحصاءاتهم ونتائجهم ، وفجأة ظهر أساتذة من كليات العلوم والطب والهندسة والزراعة يتحدثون عما فى القرآن من اعجاز . وذلك فى حد ذاته عظيم وجهد يشكرون عليه ، ولكن يجب ألا ننسى أن التفسير العلمى بهذا الشكل الساذج يعنى أنه لولا اكتشاف تلك النظريات والبراهين العلمية لأصبح ما فى القرآن والعياذ بالله مجرد نقوش أثرية . ولذا فنحن نرفض تلك المحاولات التى قام بها الدكتور مصطفى محمود والمرحوم الدكتور عبد المحسن صالح لحمل مفاهيم معينة من العلوم إلى أذهان الناس عن طريق القرآن أو السنة ، فالقرآن والسنة اعجاز كل بذاته وبمفرده وهما لا يحتاجا إلى معجزات أخرى تجلو أسرارهما . تلك هى أولى الخطى التى اتخذها الرئيس المؤمن لتقريب مفهوم دولة العلم والإيمان من أذهان الناس .

ودس السم فى أحلى العسل . أما العلم فتعدى حدود ما يعلمه مصطفى محمود وعبد المحسن صالح ويوسف جوهر وغيرهم من علماء المسلمين ، فأصبح علما فى أى شىء : الفرعونيات ، المصريات ،

الموسيقى ، الغناء ، المسرح ، القصة ، وظهر علماء وعالمات فى نفس الحقول دخلوا بثقلهم لربط تلك العلوم بالإيمان . والإيمان هو كما سبق ان أوضحنا ، على أساس الأديان الثلاثة ، فالمسلم مؤمن على أساس الدين الإسلامى ، والمسيحى مؤمن على أساس الدين المسيحى ، واليهودى - وان يكن الأقل حظا - مؤمن على أساس الدين اليهودى . واختلط الحابل بالنابل . وأصبح المجتمع فى حيص بيص ، لا ندرى فى أى درب نسير فكل الدروب تؤدى إلى الإيمان وكل العلوم مرتبطة بالإيمان . حتى الموسيقى أضيفت عليها مسحة القداسة فهى تنقى الروح وتصفيها! والرقص والزار أدخلهما علماء النفس المشاهير فى مختبراتهم النفسية ليخرجوا بعدها بنتيجة مؤادها أنهما يساعدان فى ازالة التوتر العصبى وعليه فليرقص المصريون والمصريات ومن بعدهم بالطبع جميع العرب . أما الغناء ، ثالثة الأثافى فهو حلال ولا حرمة فيه وهو استمتاع بما أنعم الله على بعض الموهوبين ، وتشجيعاً لعلاقة الغناء بالإيمان والدين كان الرئيس المؤمن يكثر من حضور حفلات الطرب والغناء العامة ، وتظهره كاميرات التليفزيون منتشيا مغتبطا بما يسمع وبما يرى . وأخيرا فأهم نتيجة وصل اليها مرددو ومروجو هذين الشعارين بعد جهد جهيد ، هى أنه لا فارق بين الأديان الثلاثة : الإسلام ، والمسيحية ، واليهودية . وتوجت تلك النتيجة بدعوة عالمية رفعها الرئيس المؤمن أن يقام فى وادى الراحة بجنوب سيناء مجمع الأديان الذى يشمل مسجدا وكنيسة ومعبدا . وشاء الله أن يحرم صاحب الدعوة من رؤية حلمه يتحقق ، ولنا أن نحمد الله فى كل حال ولكن لا نسعد كثيرا فما يزال فى جعبة السوء بقية من أسهم وحراب.

تلك الفوضى فى الترتيب الهرمى للمجتمع المصرى أحدثت فوضى

مماثلة ومتوازية فى القوانين التى تحكم أرواح وأقدار ومصالح الناس . نهل المشرعون من القوانين الوضعية الفرنسية واليونانية والانجليزية وحتى الأمريكية التى يزيد عمر دولتها عن نيف ومئتى عام . فأصبح قتل الأفراد سهلا ، وأصبح الاختلاس أمرا طبيعيا لتحقيق الثراء ، وأصبحت الرشوة وسيلة لتحسين سبل المعيشة ، وأصبح انتهاك أعراض الرجال والنساء أمرا عاديا يدخل فيما يسمونه بطيش الشباب ، هتكت أسرار البيوت ، فضحت النساء ، وتعرت حرماتنا ، وأصبح خمسة وسبعون بالمئة من شباب مصر قابلين لإدمان المخدرات - لماذا ؟ لأن القوانين هزيلة ، ضعيفة ، خائرة ، لا تؤذى لا تؤلم ، أنها قوانين ترعى القيم الانسانية ، قوانين حسب الموضة - وضعها الواضعون لتتناسب مع الشعارين المقوتين « الدين لله والوطن للجميع » و « مصر دولة العلم والإيمان » وتصحيح هذين الشعارين يكون : الدين عند الله الإسلام ، مصر يحكمها المسلمون. فمصر دولة القرآن والسيف .

ان الإنجليزى أو الأمريكى أو الفرنسى لا يلتزم بنظافة مدينته لأنه يحب النظافة مئة بالمئة ، لكنهم يلتزمون بذلك خوفا من الغرامة التى يفرضها القانون . وانظر إلى المصرى حين يذهب إلى إحدى الدول الأوروبية، أنه يخلع عند مطار القاهرة لباس الفوضى واللامبالاة ليرتدى بدلا منهما لباس الالتزام والنظام لأنه حريص على ماله وألا يبدده فى غرامات تدفع لأقسام الشرطة والمحاكم . ونفس المصرى حين يذهب للعمل أو الاقامة فى المملكة العربية السعودية أو إحدى دول الخليج فإنه أشد الناس التزاماً ونظاماً قليلاً ما نسمع عن مصرى دهس أحد المارة فى شوارع السعودية أو الخليج - لماذا ؟ هل لأنه قائد سيارة ماهر ؟ هل لأن

سيارته فى السعودية أفضل من سيارته فى القاهرة ؟ السائق هو نفس السائق ، والسيارة هى نفسها ، ولكن القانون الذى يحكم فى الحالتين مختلف . فى السعودية يكون القتل الخطأ عقوبته السجن ودفع الدية التى لاتقل عند قبولها عن مئة ألف ريالا سعوديا أى ما يقارب ستين ألفا من الجنيهات المصرية ، أما فى مصر فانه يخرج من السجن بكفالة على ذمة القضية ويتدخل كبار المحامين وأولاد الحلال لإنهاء الموضوع . لذا فالسائق المصرى ملتزم فى السعودية ومتسيب فى مصر ، لأن القانون الذى يحكم أرواح الناس فى البلد الأول شديد وفى البلد الثانى فانه كما أسلفنا .

ذلك عن القتل الخطأ ، أما عن القتل العمد فقد يهتز أصحاب المشاعر الرقيقة وقد تقشعر جلود دعاة ثورة الفكر فى أرجاء وطننا لما تكون عليه عقوبة القتل العمد فى السعودية . فاذا ثبت أن القاتل تعمد قتل ضحيته تكون عقوبته هى الحكم بضرب عنقه بالسيف أمام الناس عقب صلاة الجمعة ، ويذاع بيان رسمى بالتليفزيون والإذاعة عقب نشرة الأخبار الرسمية فيه أسماء القاتل والقتيل وأرقام التصاديق على الحكم بالقصاص . وغالبا ما يستغرق ذلك الحكم سنة أو سنتين على الأقل حتى يصدر ، أى أنه لايكون متسرعا أو متعجلا لأى شيء . أما اذا كان للقتيل أولاد قصر فالحكم يكون الضرب بالسيف ولكن يؤجل التنفيذ حتى يبلغ القصر رشدهم وبعدها لهم الرأى اما أن يختاروا الثأر لأبيهم فيصدقوا على الحكم بالقصاص ، واما أن يتنازلوا فتكون البراءة وياله من سوء حظ لذلك القاتل لو كان عمر القاصر أو القاصرة سنة أو سنتين وقت ارتكاب الجريمة. فعليه أن يمضى تلك السنوات الطوال حتى بلوغ سن الرشد للقاصر فى أرق وسهد وتفكير . أما جريمة اغتصاب الفتيات والفتيان وان لم يعقبها قتل

الضحية فهى أيضا ضرب العنق بالسيف ، وسلمت يد السياف وسلمت يد من أصدر وصدق ذلك الحكم . وآخر ما أصاب السيف هو رقاب مروجى وتجار المخدرات ، وبذا يكون الطريق نحو تأمين المجتمع شرور المفسدين فى الأرض . تلك هى المملكة العربية السعودية ، الأرض التى أمنت بعد خوف لأنها طبقت شرع الله فى عباد الله ، أما نحن فقد لهثنا وراء غير ما أنزل الله فكانت فوضى الأحكام التى نراها . وما كنت لأحرك قلمى فى الحديث عن فوضى الأحكام الوضعية فى مصرنا العزيزة لولا الحكم ببراءة قاتلة زوجها.

فقد أصدر القاضى المسلم حكمه على تلك القاتلة بالأعدام وذلك لقناعته والمحكمة بتجريم الفاعلة وثبوت ما نسب اليها شرعا واعترافها بأنها قتلته وقطعته أربا ووضعته فى حقيبة وحاولت اخفاء فعلتها لولا تدخل أبيها وعمها وابلاغهما الشرطة ، وقال القاضى المسلم « لا أجد عقوبة أكثر من الأعدام بحق هذه السيدة » وسعدنا كثيرا بهذا الحكم الا أن بلاء ووباء الأحكام الوضعية يلحق بنا ، فتقدمت القاتلة بطلب لاستئناف الحكم أمام أحد القضاة المسيحيين ، ولا ندرى أكان اختيار ذلك المستشار صدفة أم عمدا ، وحصلت - صدقوا أو لا تصدقوا - على حكم بالبراءة المطلقة . وقد بلغ الاستهتار حد الذروة حينما قال قاضى الاستئناف المسيحى لأولاد القاتلة « لا تبكوا ستذهب أمكم معكم إلى البيت » وقد كان له ما أراد ، وتحقق ربما لأول مرة فى تاريخ القضاء المصرى أن يلغى قاضى مسيحى حكم قاضى مسلم هو من اختصاص المسلمين وفى حد من حدود شريعة الإسلام .

وما يعنينا هو أن غرسة شعارى « الدين لله والوطن للجميع » و «

مصر دولة العلم والأيمان » قد أثمرت أطايب الثمرات منذ عام ١٩١٩ ، ولابد أن كل زوجة فى مصر ستفكر فى قتل زوجها وبعدها تطلب المثول أمام القاضى المسيحى الذى يرأف بحال النساء المسلمات ويعتبر لما وقع عليهن من ظلم الأزواج . وقد أعلن الكاتب الكبير مصطفى أمين – فى سقطة منه – تأييده لقرار البراءة هذا فقال : « أننا نحى المستشار أنطون باسيلى وزميليه المستشارين مدحت زعلوك وأنيس أحمد جبره على اصدار هذا الحكم الشجاع الذى وضع نهاية للظلم الذى وقع على هذه السيدة التى أمضت فى سجن القناطر الخيرية ستة أشهر تنتظر الموت ، ولا تفكر فى شىء الا كيف سيعيش أولادها الصغار بعد أن فقدوا الأم والأب . وماذا سيلاقون من زملائهم فى المدارس أو جيرانهم من اهانة وتحقير . وقد رفضت الأم أن تلتقى بأولادها فى السجن حتى لا يرونها فى ملابس السجناء » (فكرة ، الشرق الأوسط ، العدد ٣٤٤٢ ، فى ١ /٥/ ١٩٨٨) .

هل يظن كاتبنا المبجل أن تلك السيدة ستحيا حياة سعيدة بعد فعلتها تلك ؟ عليه أن يسألها . وعليه أن يراجع ما جاء فى القرآن من أحكام تتعلق بأرواح المسلمين والتى نورد بعضا منها فيما يلى :

١ – فى القتل الخطأ ، والذى حكمه الدية والكفارة قوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ . ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، الا أن يصدقوا . فاذا كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » (النساء ٩٢).

٢ - فى القتل العمد ، والذى حكمه الاثم والحرمان من الميراث والوصية ، والكفارة ، والقود أو العفو (فقه السنة ، ج ٢ ص ص ٥٢٠ - ٥٢١) ويقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فأتباع بالمعروف وأداء اليه بأحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم « (البقرة ١٧٨) .

وهل يعلم كاتبنا وآخرون ممن اغتبطوا بهذه البراءة الدنيوية كم مخالفة أرتكب ذلك القاضى وتلك القاتلة ؟ انها ترث زوجها وتتمتع بماله ومعاشه وشقته وتعيش فى أثاث بيته وهذا حرام شرعا سواء كان القتل خطأ أم عمدا وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليس للقاتل شىء ، وان لم يكن له وارث ، فوارثه أقرب الناس اليه ، ولا يرث القاتل شيئا » (أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه) . واذا كان القتل الخطأ يستوجب الكفارة ، كما يستوجبه العفو عند القتل العمد ، فان صاحبة الجرم قد أفلتت من كفارة جريمتها علاوة على أن المحكمة لم تسمع رأى الورثة أو رأى أهل المقتول عملا بموجب القود أو العفو - لأن ذلك هو حال المحاكم التى تعمل بما أنزل الله ، أما المحكمة موضوع حديثنا فهى تحكم بما أنزل فلان وعلان - وانتهى الأمر فى سعة أشهر وبرئت ساحة تلك المجرمة وعادت لتعيش بين أبنائها على حد ما يقول الأستاذ مصطفى أمين .

واذا كانت تلك القاتلة لا تستمرىء أن يراها أولادها فى سجن القناطر بملابس السجينات ، فهل تستمرىء أن يعيرها الناس بقاتلة زوجها ؟ ان القتل خزى وعار لأنه اعتداء على أفضل ما وضع الله فى جسد ابن آدم - الروح . القتل أزهاق للروح ، فكيف يتهاون فيه قضاؤنا . وما كان لتلك

القاتلة أن تفلت من عقوبة الاعدام لولا تولية قاضى غير مسلم أمور المسلمين . فان تولية قضاء المسلمين لغير المسلمين غير جائز شرعا ، ولا يقضى بين الناس الا من كان عالما بالكتاب والسنة فقيها فى دين الله قادرا على التفرقة بين الصواب والخطأ بريئا من الجور بعيدا عن الهوى . وقد اشترط الفقهاء فى القاضى أن يبلغ درجة الاجتهاد فيكون عالما بآيات الأحكام وأحاديثها ، عالما بأقوال السلف ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه عالما باللغة وعالما بالقياس ، وأن يكون مكلفا ذكرا عدلا سميعا بصيرا ناطقا . وهذه الشروط تعتبر حسب الامكان ويجب تولية الأمثل فالأمثل . فلا يصح قضاء المقلد ولا الكافر ولا الصغير ولا المجنون ولا الفاسق ولا المرأة لحديث أبى بكر قال : « لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » ... وقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المنهج الذى ينبغى أن يسلكه القاضى فى قضائه لما بعث معاذا إلى اليمن فقال له : « بم تقضى ؟ فقال بكتاب الله . قال فان لم تجد ؟ قال فبسنة رسول الله . قال فان لم تجد ؟ قال : فبرأيى . (رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده) « (فقد السنة ، ج ٢ ص ص ٣٩٥ - ٤٠٠) ويجمع سبحانه وتعالى فى أربع آيات متتابعات وصف من لايحكم بما شرع الله لعباده فيقول فى سورة المائدة : « أنا أنزلنا التوراه فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالانف والأذن بالأذن والسن

بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثرهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراه وآتيناه الأنجيل فيه هدى ونور مصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (المائدة ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) .

فمن لم يحكم بما أنزل الله يصنفون ثلاثا : كافرون ، وظالمون ، وفاسقون . اذ أن الحكم بين الناس هنا لا يعنى الجلوس على مقعد وثير واصدار قرارات صالحة وطالحة من عليه ، ولكنه يعنى الحكم فيما شجر بينهم من خلافات حياتية يومية . وان الحكم السياسى بمفهومنا الحالى لا يكون كاملا وعادلا الا اذا كان قضاؤه عادلا شاملا ، ولا يكون قضاؤه عادلا وشاملا الا اذا حكم بما أنزل الله وحده وكفر بما سواه . اذ أن ابدال القوانين الألهية والشريعة السماوية بقوانين وضعية يعنى نقل صفة الحاكمية التى هى من اختصاص الله وحده إلى مخلوقات الله من البشر وهذا يعنى انقلابا فى الشكل الهرمى الذى الفته البشرية . ولا يكفى التغاضى عن القوانين الوضعية أو اهمالها ولكن يجب الكفر بها ومقتها واستنكارها .

واذا فرض أن القضاة المسلمين قل وجودهم ونضب معينهم وعقمت أرحام المسلمات أن تلد قاضيا مسلما وولى علينا قاضى مسيحى فهل حكم بما أنزل الله وبماجاء فى الإنجيل فحكم الحدود فى كتب الله واحد لا يتغير ، « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » (المائدة ٤٧) وحتى لو كان ذلك القاضى يهوديافعليه أن يحكم بما جاء فى التوراة التى فيها

أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص .

لكن ما كان لذلك القاضى أن يتولى أمر المسلمين لولا الشعارين التعيسين موضوع حديثنا اليوم . فبمقتضاهما دخلت فوضى الأمزجة والأهواء إلى كل دقيق وعظيم فى حياة مصر المسلمة . فقد حزن الغرب المسيحى لذهاب المسيحية عن مصر ، وأحزنهم أن يكون فى مصر أهل الإسلام ، وأحزنهم أن يكون بينهم خير أجناد الأرض ، وعليه سعوا إلى أفسادها . وقد نجحوا . فأدخلوا ما يذهب بضوابط الحدود وأدخلوا ما يذهب بضوابط الحفاظ على أرواح الناس وممتلكاتهم ، وأدخلوا ما يذهب بضوابط الحفاظ على عورات النساء وأسرار البيوت . وان كنت قد ركزت فى حديثى على القتل وروح الإنسان المسلم فلأن ذلك هو أخطر ما حرصت عليه الشريعة الإسلامية . فلا شىء يعوض زهق روح بريئة . ان المسلم لابد أن يأمن على نفسه وأهله وماله ، لابد أن يأمن على دمه وعرضه ، والا فان عليه أن يهاجر من أرض لا يجد فيها أمنا على روحه ودمه وعرضه وماله ، فتلك دار حرب لا يحل له البقاء فيها . فما هى السعادة المتحصلة حينما تداهم قوى البغى والعدوان أحد البيوت وتقوم بتفتيش غرف النوم والنساء نائمات غافلات ؟ وما هى السعادة المتحصلة حينما يقتل أحد الأبناء أو البنات وهو فى طريقه من أو إلى المدرسة وحين نسأل عن القاتل يقال أنه أفرج عنه بضمان محل اقامته وسينظر الأمر فى المحكمة وتحكم المحكمة بغرامة عدد من مئات الجنيهات تدفع لخزينة المحكمة ؟ وما هى السعادة المتحصلة حينما تنتهك حرمات النساء فى الطرقات ولا نجد شرطيا يضع حدا لاستهتار وطيش الشباب؟ ما هى

السعادة المتحصلة حين لا نأمن على أموالنا من نصب الشركات الوهمية؟.

ان القتل فى الإسلام محرم الا لقصاص . ولعلم دعاة التنوير الفكرى والثورة الفكرية أن قطرات دم القصاص هى غسيل لملايين الآثام والذنوب. وأن سيفا واحدا فى يد سياف مصرى خير من آلاف مصابيح التنوير التى يدعون أنها ستضىء الطريق لنا . ان قطع يد سارق واحد ستمنع آلاف السرقات وستكف أيدى المئات . ان رجم زان واحد أو زانية واحدة سيحصن آلافا ممن تسول لهم شياطينهم اقتراف الزنا . وان ضرب عنق واحد فقط اغتصب فتاة من الشارع العام سيكون رادعا لألف ممن تسول لهم الرعونة والطيش أن يعتدوا على حرمات النساء . وان مطالبة دفع دية القتل الخطأ حسب الشريعة - والتى هى مئة من الجمال أو النوق أو ما يعدل قيمة أى منهما - ستجعل كل سائق سيارة يحترم نفسه ويحترم قواعد السير ويعرف قيمة المشاة والمارة فى الطريق ، وسيسقط من حسابه تلك العبارة الناعمة « أفرج عنه بضمان محل اقامته » .

لنعد إلى شرع الله فهو أبقى وأخلد من أى شعار يوضع بديلا له . ان الله خلق الإنسان وأنزل الكتاب ، وكان القرآن هو أمثل الأحكام فجمع وأوفى . الدين لله نعم ، لكن الدين عند الله هو الإسلام معنى ولفظا . والوطن للجميع نعم ، ولكن حكام ذلك الوطن هم المسلمون فقط ، وعلى غير المسلمين الخضوع لنظم وقوانين المسلمين الشرعية ولهم بعد ذلك أن يأمنوا على دينهم وأنفسهم . أما أن تتحول الكنائس الى مستودعات للذخيرة والأسلحة وتصبح مراكز تدريب ومسارح مناورات ويعلن ذلك رئيس الدولة ويسكت فهذا أمر لا يقبله عاقل . ولنسقط من حياتنا ذلك الشعار المسخة « مصر دولة العلم والإيمان » فالدولة المسلمة شعارها كتاب

الله والسنة وسيف الرسول . الكتاب يجادل الناس بالتى هى أحسن فان لم يستجيبوا لصوت الحق فالسيف أولى . فالله يعلم سبحانه وتعالى ان الإنسان متمرد بطبعه ، وقد حكى ذلك فى قرآننا العظيم من خلال قصص بنى إسرائيل والأمم التى خلت . هدانا الله وهدى المسلمين أجمعين لما فيه الخير والسداد والرشاد .

٢ / ٦ / ١٩٨٨ م

خاتمة

ترددت كثيرا قبل أن أشرع فى كتابة خاتمة لهذا العمل الذى جمع بين دفتيه اثنتى عشرة مقالة حوت مواضيع مختلفة كان محورها موقف ثقافتنا العربية الإسلامية تجاه الفوضى الواقعة المتكررة صباح مساء فى حياتنا سواء فى العالم العربى أو الإسلامى . وقد حاولت فى تلك المقالات المتنوعة أن أكون مثاليا ، وأن أعود بكثير من الأمور إلى نصابها ، وإلى وضعها الأصلى التى كانت عليه حسب رأى العقلاء من المفكرين المسلمين. وفى ذلك ما يجلب على الاتهام بالتطرف أو التشدد أو التعصب أو حتى ضيق الأفق إذا كان لبعض المخالفين أن يطلقوا العنان لملكات نقدهم ، خصوصا عندما تحدثت عن القوانين الوضعية وفوضى الأحكام ، والغناء ، والإذاعات العربية السعيدة ، وفوضى الثقافة ، كما أن مقدمة هذا العمل لابد وأنها ستكون مصدر أتهام طيب لجميع تلك التهم التى سأقبلها بصدر رحب . ولقد انتهيت فى كل دراسة إلى ما أريد الوصول اليه من اقتراحات وحلول ، ولا داعى لأن أدبج ذيل هذا العمل بمزيد من سفسطة للكلام وإعادة خلاصات ونتائج سبق الاشارة اليها ، لكننى أكتفى بالقول أن عدم جودة رغيف الخبز فى الشارع المصرى مرتبط مئة بالمئة بعوامل ثقافية بحتة . ولنكن واقعيين فنتصور أن الخباز الذى يغش وزن رغيف الخبز أو نوعيته إنسان انعدمت فى داخله دوافع الإخلاص والصبر على الرزق الحلال ، ولكن تلك العناصر تأتى مع التثقيف والتنوير الذى نسعى اليه فى هذا العمل وفى أعمال أخرى تالية . وعلى أعلى مستوى فان الوزير الذى يخطىء ويسىء إلى الشعب إنما هو وزير جاهل أمى

ويربى المشرب دنس المعشر ، ولو كان إنسانا متعلما مثقفا متنورا ما أخطأ فى حق نفسه وأمته :

عليه فان الثقافة ليست مظهرا كماليا ، هى متطلب أساسى ينبغى أن يتحلى به جميع أفراد المجتمع . وهى ليست محصورة فى خريجى الجامعات والمدارس فقط ، هى سلعة يشترى منا كل بقدر استطاعته ، أن يقرأ وأن يطلع وأن يتفهم رأى الآخرين . ولا أتصور أن تكون الثقافة مفروضة على أى شعب لأنها عندئذ تفقد مصداقيتها . فان وجود وزارة للثقافة تتولى أمر تثقيف وقيادة الأمة أمر مضحك ومثير للسخرية . ثقافة الأمة فى تراث مفكريها وليست فى قرارات الوزراء ، ثقافة الأمة فى إجتهاد أبنائها فى إنتاج فكر واقعى يتكيف ومتطلبات كل فترة ، ثقافة الأمة فى كل كلمة يراد بها الصالح العام ولا يراد بها النفاق ، ثقافة الأمة هى ما ننتج من كتب لا ما يعاد طبعه بأمر أحد الوزراء ، ثقافة الأمة هى الجمعيات الأدبية التى تجمع الجنيهات من كتابها وتنشر آراءها على الناس لا تلك الدوريات التى نسمع عنها وتصدرها الحكومة وتكون مدعومة من قوت الشعب ، ثقافة الأمة هى خطبة الشيخ على منبره دون خطة موضوعة من وزارة الأوقاف .ثقافة الأمة هى تفاعل خطيب الجمعة مع قضايانا ، مع رغيف الخبز ، مع الشارع الذى يعانى ، من أزمة السكن ، لو نجح خطباء المساجد فى توصيل معنى آية واحدة من القرآن الكريم إلى الناس علماً وعملا لكفاهم ، أما أن يتحدث خطيب المسجد عن ثلاثين آية فى خطبة واحدة فذلك جهد لا طائل من ورائه .

وأساس ثقافة الأمة هو الحب الذى يجمع الكل على مائدة واحدة ، رئيس الدولة ووزرائه مع عموم الشعب . هناك تفاضل وتمايز لكنه فى المال

وسعة الرزق والأولاد والبنات ، أما بين أفراد الشعب الواحد فنحن غناصر تأتلف وتتحد لتكون البنية الأساسية للمجتمع . فرئيس الدولة ووزرائه وكافة الموظفين بالدولة ومفكريها لابد أن يكونوا على حرص دائم بتقديم القدوة ليس لجيلنا نحن ، ولكن للقادمين ، لجيل سن العشرين وما قبله كى نبنى مصرا غالية ، كى نبنى دولة عربية قوية ، كى نقيم اسلاما صحيحا. فنحن لا نطلب من المسئولين توفير رغيف الخبز فقط ، لكننا نطلب حرية الرأى ومصداقيته ، لا نريد أن يصبح الكلام رخيصا لا ثمن له الا حبر المطابع ، نريد الكلمة غالية ثمينة ذات قيمة فى صدر وعقل كل من يسمعها . لكن أن يترك من يقول رأيا مخالفا وشأنه ويضع المسئول فى إذن طين وفى الأخرى عجين فذلك زمن لا نسعد بأن نعيش فيه . إن النقد الحر يكسب مصداقيته بقدر ما يكسب من استجابة لدى القائمين على أمر الأمة . ولقد جربت مصر أن تعيش فى رخاء دون أن توجد حرية رأى ، وكان ذلك وضعا شاذا سرعان ما انقلب إلى فوضى أعقبت حكم السادات تمثل أهم نتائجها فى تضاعف ديون مصر الخارجية إلى ضعفين .

ونحن اليوم نريد أن يكون لمصر ومن ورائها جميع بلاد الإسلام ، دور جديد غير الدور الذى تعودنا عليه . إن البريسترويكا والجلاسنوست فى أوروبا الشرقية تضعنا أمام تحدى صعب . فنحن كنا نواجه أوروبا الشرقية بخزعبلات عن الشيوعية فأضعنا فرصة ذهبية لنشر ثقافة الإسلام الصحيحة بين شعوبنا ولم نستطع أن نصل إلى تلك الدول الشيوعية ، واليوم نحن نواجه بولندا ورومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ويوغسلافيا وجميعهم يعودون إلى الدين كأساس لقيام دولة قوية بعد أن جربوا أربعين عاما بلا دين ولا قيم إنسانية وبلا احترام للفرد .

فلماذا لا يكون الإسلام أساسا لإعادة البناء فى بلادنا لأنه فى النهاية دين خلق ، لماذا لا نقلد كما تعودنا التقليد من الغرب والشرق ؟ هيا نقلد بولندا التى فيها مقر حلف وارسو وهى تدعو لعودة الدين إلى ربوعها ، هيا نقلد رومانيا وهى تدق أجراس الكنائس بعد القضاء على شاوشيسكو: ولتذكر أن أول كلمة قالها مذيع التليفزيون الرومانى بعد مقتل تشاوشيكو « مات عدو المسيح ـ The Anti - Christ Died » . ولم يقل مات عدو شعبه ، لم يقل مات عدو الحرية . هكذا الشعوب تحن إلى الدين لأنه الفطرة . فلماذا لا نعود إلى الإسلام وهو أطيب ما فطر عليه الإنسان. لنجرب ولسوف ننجح بإذن الله .

المحتـــويات

الموضوع	الصحفة
إهـــداء	٣
مقدمة : هل تعود الامبراطورية الاسلامية ؟	٥
١- حضارتنا والفوضى	٣٠
٢- ثقافة أطفالـنـا	٣٨
٣- الكاتب والمجتمع «١»	٤٦
٤- الكاتب والمجتمع «٢»	٦٠
٥- الابداع الأدبي والتخصص الدراسي	٧٢
٦- الوعي هو أساس بناء البلاد	٨٤
٧- فوضى الثقافة : أسبابها ونتائجها	٩٢
٨- حضارتنا عربية أم اسلامية ؟	١٠٥
٩- الاذاعات العربية السعيدة !!	١١٥
١٠- أبو جهاد والجابرية والقذافي	١٢٦
١١- القوانين الوضعية وفوضى الأحكام	١٣٣
خاتمــــة	١٤٦